


الجزء الثاني




علي جابر الفيفي

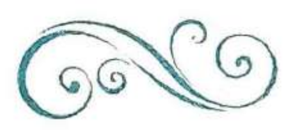



الطبعة الأولى

# لأنك الله

## مِعْرَاجُ النُّفُوسِ المُطْمَئِنَّةِ

علي جابر الفيفي



الجُزْءُ الثَّاني




بسم الله الرحمن الرحيم




رأيت رؤيا وأنا في السادسة من عمري،

فأخبرت بها والدي،

وما زلت حتى هذه اللحظة

أذكر ابتسامته واستبشاره بها!

وقد أُوِّلت لي بعد ذلك بسنوات

أنّه كتاب أؤلفه عن الله تعالى!

إلى والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

أُهدي هذا الكتاب..

علي



# المقدّمة

اللهم لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، ولك الحمد على حمدنا إياك..

ثم الصلاة والسلام على إمامنا وسيّدنا وقائدنا وقدوتنا محمد بن عبد الله، عليه وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.. أما بعد:

فهذا هو الجزء الثاني من كتاب «لأنّك الله» الذي صدر قبل ستة أعوام، وقد حاولت أن يكون على نفس النظام والنسق، حتى يتوافق الجزآن في الشكل والمضمون، وأسأل الله أن يُنيل الجزء الثاني ما نال الجزء الأوّل من البركة والقبول، وأن يجعل من بركات هذا الكتاب على كاتبه وقارئه ووالديهم رضاه الأبدي، وتوفيقه السرمدي.

وها هو بين يديك الجزء الثاني من هذا الكتاب الذي أسأل الله أن يكون نافعًا للقلوب، وموقظًا للهمم السائرة إلى الله.. وقد سلكت

فيه ما سلكت في جزئه الأوّل، فليس الكتاب علميًا ينحو باتجاه التعاريف والتقاسيم والأقاويل ورد الأباطيل.. وإنّما هو قلم أديب إن صح لي أن أكون أديبًا، وقلب متأمّل إن صلح أن أكون متأمّلًا، يحبّ الله كما يحبّه جميع المسلمين، وهو أهلٌ لأن يُحب وأن يُعبد وأن يُتّقى سبحانه.. فأحببت أن أدوّن شيئًا من حبي لربي في هذه الوريقات، فإن كان فيها من خير فمنه وحده، وإن كان فيها غير ذلك فأستغيث به أن يعذّب قلبًا أحبّه! وأطلبه العفو والمغفرة والمسامحة..

**لساني لا يطيق لكم ثناء فهو منعقدُ**
**وفي أعماق أوردتي مساجدُ ما لها عددُ**

أسأل الله أن يجزي كل من أحب هذا الكتاب، وقرأه، ودعا لصاحبه، ونشره، وأقام حوله مشاريع القراءة والتثقيف، ومسابقات للطلاب في المدارس والمراكز.. وأن يبارك في الجميع، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين..

**وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد..**

✍ **علي بن جابر الفيفي**
١ صفر ١٤٤٤هـ





لأنّـــك الله أنـــوار الـرضـا أبـدٌ
الـنـور درب .. وأيـــام .. ومـفـترقُ
لمَّـا عرفتـك صـار الحب أشـرِعتي
أمضي وحيدًا .. وعُـبَّاد الهوى غرِقوا



# الرحمٰن

ما اسم الخليّة المخصصة لهذه المشاعر؟

أو ما الإنزيم المحفّز لشعور

الرحمة في قلب الأب؟

أو ما طبيعة الأنسجة التي تكون

مسؤولة عن مثل هذا الإحساس

في جسم الأم؟

# الرحمٰن

أحمد الله كثيرًا أن كان رحمانًا رحيمًا.. كيف ستكون الحياة لو لم يكن ربّنا رحيمًا بنا؟ إنّ رحمته لتظهر في كل نَفَس نتنفّسه، وفي كل صورة نُبصرها، وفي كل همسة نسمعها..

بل أحمد الله كثيرًا أن جعل من حقّ هذا الاسم أن يظهر ظهورًا مكثَّفًا في حياة المسلم! فقد شرع لنا أن نسمّي باسم الله الرحمٰن الرحيم في شؤوننا! استجلابًا للرحمة والبركة والتوفيق..

وفي بداية كلّ ركعة من صلاة يأتي اسم الرحمٰن واسم الرحيم ليكون خير افتتاح لخير عمل!

وقبل كل سورة قرآنية تأتي الرحمة لتكون مطلعًا مباركًا لها..

ثم تظهر في أكثر من مئة وستين آية قرآنية.. بل وتختص سورة ذات نسج فريد ونظم متميّز باسم «الرحمٰن»..

فمع الرحمٰن والرحيم نحلّق بأرواحنا، ونعرج إلى سماوات الرحمة..

## الكهف

تقول قصّة أصحاب الكهف: إنّ فتية آمنوا بربّهم، وهربوا من قومهم الذين يشركون بالله، هربوا من الحياة باتساعها، ولجؤوا إلى كهف ضيّق!

كهف مظلم، بارد، موحش، يفتقر لمتطلبات الحياة الهانئة!

كيف ستكون الحياة في ذلك الكهف؟ كيف تمرّ عليهم الليالي في ذلك المكان الممتلئ بالهوابط الكلسيّة التي راكمتها شتاءات السنين؟ لا شكّ أنها ستكون حياة موحشة، تمرّ لياليها ببطء موحش بارد!

ولكن إذا قرأت الآية التي تتحدّث عن ذلك الكهف؛ ستعلم كيف سيكون كهفهم مضيئًا، وأنّ عناقيد الأنوار اللؤلؤيّة قد علّقتها رحمة الله في جُدُر ذلك الكهف، ونوعًا من الأثاث الفاخر قد اختص الله به ذلك الكهف فبات أشمخ من كل القصور! إنّه أثاث الرحمة! يقول سبحانه: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الكهف: ١٦].

إن الرحمٰن إذا نشر رحمته في مكان مظلم أضاء، وفي كهف ضيّق بات فسيحًا، وفي قلب ميّت نبض بالحياة.

لذلك فقد جَعَلَتهم تلك الرحمة لا يحتاجون إلى الطعام ثلاثمئة سنة! جعلتهم في راحة تامّة باتوا بسببها لا ينتبهون من نومهم اللذيذ



سنين عـددًا، جعلـت الحزن لا يطـلّ عليهـم، والتوجّـس لا يطرق قلوبهم، والخوف لا يقترب من كهفهم، بـل يولّي هاربًا مرعوبًا! إن الله إذا اختصّك برحمة منه، فقد كفاك كل هموم الحياة وغمومها!

بل إن من بركات تلك الرحمة التي نشرها الله في ذلك الكهف الضيّـق أنْ باتت قصّـة كهفهم بيانًا يقـرؤه عامّة المسـلمين في كل أسـبوع، ليقتبسـوا منه النور والهدى، فرحمة الله على أولئك الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم ربّهم هدى.

## الأشــواق

من رحمته سبحانه وتعالى أنّـه يعلم ما في نـار جهنّم مـن عذابات وآلام للجسـد والروح، ويعلم ما هي الأمور الموصلـة إليها، فينزل على عبـاده كتابًا كل الدلائل تشـير إلى أنّـه هو من قالـه، وتكلّم به، ثم يأتي ذكر النار وجهنّم والسـعير والحطمة واللظى والهاوية وغيرها من الأسـماء مئات الـمـرّات، ويأتي ذكـر الأمور الموصلـة إليها، والاعتقادات التي تقود للخلود فيها، تحذيرًا لعباده، ورحمة بهم.

يخبرهم في عدد كبير من نصوص الوحيين أنّه غفور حتى يكفّوا ويرجعوا إليـه، ويخبرهم أنّـه يفرح بتوبتهـم إذا تابـوا، يتحبب إليهم بذكر نعمه عليهـم، ويذكّرهم ببديع خلقه، وبجميـل أقداره، وبعظيم حلمه، ومغفرته، وإحسانه حتى يحنّوا للدخول في عباده الصالحين.

يرحم عباده، ويريد أن يدخلوا الجنّة، فيذكرها لهم بخضرة أشجارها، وبعذب مائها، وبجميل قصورها، وبروعة دورها، وبهناءة عيشها.. ثم يذكرها المرات العديدة، ويكرر الآيات التي تستنهض الأشواق لدار الخلود، حتى إذا ما مرّت بهم آية وهم ساهون، تأتي الثانية وهم متيقظون، فإذا فاتت الثانية، فلن تفوت الثالثة، وهكذا، في عذوبة ألفاظ، وفخامة أسلوب، وتذكير بتفاصيل متعددة، فإن كان القارئ للقرآن غير متطلّع لخضرة الأشجار فلعلّه يحب جمال الأنهار، وإن كان إدراكه قاصرًا عن تخيّل القصور، فلعلّ خياله ينشط لذكر الحور.

يذكر أعمال الشر فيبغّضها لعباده في حالها ومآلها، لينجوا من مغبّتها، وما تفضي إليه من غضبه ونقمته.

ويذكر أعمال الخير فتأتي مكللة بجمال الوصف، وحسن العبارة، فتتوق النفوس السويّة للإتيان منها بما يفتح الله به.. فتعظم بذلك منازلهم، وتعلو رتبهم، فسبحان الرحمٰن الرحيم.

### الشعور الفيّاض

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على**

**ولدها، وأخّر الله تسعًا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة»**[1].

ومن رحمته بخلقه أنّه ينزل في قلوب الوالدين من الرحمة تجاه أبنائهم ما لا يمكن أن يقوم به عيشهم لو لم تكن تلك الرحمة، وتلك المشاعر التي لا يستطيع مخلوق أن يتحكّم بها. فلو دُفع لأمّ أموال الدنيا على أن تلقي صغيرها من شاهق لما فعلت، ولو كُلّف أب أن يدفع بابنه أمام سيّارة مسرعة، وجُعل له مقابل ذلك كنوز قارون لما فعل ذلك! ما هي هذه المشاعر التي تقاوم مثل هذه الإغراءات، وتصمد في وجه هذه العروض؟

كيف استطاعت فكرة الإلحاد تجاوز هذه المشاعر التي لا يمكن لملحد أن ينكر وجودها في أعماق أعماقه! ما اسم الخليّة المخصصة لهذه المشاعر؟ أو ما هو الإنزيم المحفّز لشعور الرحمة في قلب الأب؟ أو ما طبيعة الأنسجة التي تكون مسؤولة عن مثل هذا الإحساس في جسم الأم؟

فقط اسأل الملحد عن سرّ تحوّل القطّة إلى وحش مفترس لحظة اقترابه من صغيرها؟ وكيف يمكن للداروينيّة تفسير هذا الشعور؟ وإذا كان غريزة، فمن الذي غَرَزَها؟

---

(١) صحيح مسلم (٤/٢١٠٨).

إنّها الرحمة التي أنزلها الله من رحماته المئة لعباده، حتى يتراحموا فيما بينهم، فلا ماديّة تستطيع أن تحدد مكان هذه الرحمة، ولا مختبر يمكنه أن يقيس حجم هذه الرحمة، ولا ميكروسكوب يقدر على رؤية جزيئات هذا الشعور الفيّاض.

## فاسأل به خبيرًا

ومن جلال هذه الصفة، وهذين الاسمين أنّه اختارهما ليكونا في البسملة التي يُبتدأ بها قراءة القرآن، فيقول قبل أن يشرع في قراءة سورة من القرآن الكريم: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ويكررها المسلم في أعمال يومه وليلته.. وكأنّ رحمته سبحانه هي السبب في كل خير نناله، والسبب في صرف كل شر نخافه، وهي التي لا قوام للعيش بدونها، ولا يُتصوّر حياة خالية منها.. لذلك كان تكرار ذكرها مهمًّا، حتى تصنع كثرة تكرارها، وتردادها في نفس المؤمن شعورًا برحمة ربّه، وعمقًا في هذا الشعور.

ومن عِظَم صفة الرحمة، واسم الرحمٰن أنّه سبحانه عندما ذكر استواءه على عرشه جاء بهذا الاسم مرّتين في القرآن فقال مرّة: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقال أخرى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ

عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٩] وكأنّ في استشعار العرش العظيم، ثم في استشعار استواء الجبّار على عرشه مشاعر خوف وخشية ورهبة عظيمة تمس القلوب الحيّة، فأتى سبحانه بهذا الاسم الذي تفيض منه أنوار الرحمات والبركات ليُطمئِنَ عباده المتقين، فإن كان استواؤه على عرشه، واطلاعه على خفاياهم، وعلمه بكل ما يخفون وما يعلنون يستوجب خوفًا، فإن عليهم ألا ينسوا أنّه الرحمٰن الذي وإن علم ذنبك فهو يحب أن يغفره، وإن سمع تجاوزك فهو يفرح بتوبتك، وإن رأى خطأك فهو يريد أوبتك! فهو الرحمٰن الذي يسبق حلمُه علمَه، ورحمته غضبُه، وعفوه انتقامَه.

ثم لتتأمّل في الآية المذكورة ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ يأمرك الله سبحانه أن تسأل عنه، وتزيد علمك به، يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «أي: استعلم عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتد به»[1] وهذا من عظيم رحمته، أن لم يجعل أمر هذه المعرفة الشريفة مقصورة على ما فطره في نفوس عباده من حبّهم لمعرفته، بل أمرهم بهذه المعرفة أمرًا، حتى يحصل لهم بها ما يحصل من الزكاء والهداية.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ١١٩).

## عذاب من الرحمٰن

كنت أتساءل وأبحث عن حكمة إتيان اسم الله الرحمٰن في موطن العذاب، في مثل آية سورة مريم: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ [مريم: ٤٥]! وأسأل نفسي: لماذا لم يقل: عذاب من الجبار مثلًا؟ لأنّي كنت أظن أنّ العذاب فعل لا ينسجم في التعبير البشري مع الرحمة؟

ثم ظهر لي أنّه ﷻ رحيم رحمٰن حتى في عذابه لأعدائه! فمن ذلك:

أنّه يمسّ أعداءه بالعذاب مسًّا في بداية أمرهم حتى يثوبوا عن عنادهم ويعودوا، فكان هذا العذاب الذي نهايته انزجارهم رحمة منه.

ثم هو يعذّب الظالم فيكون في ذلك زجرٌ لغيره عن السير في طريق الظلم، فيكون هذا الزجر والتحذير من رحمته سبحانه ببقيّة عباده.

ثم إنّ عذاب الخلق إن عذّبوا بعضهم هو محض ظلم، فجيء باسم الرحمٰن في هذا السياق حتى يَلفت نظر المؤمن أنّ عذاب الله ليس ظلمًا لعباده، فهو سبحانه منزّهٌ عن الظلم، بل هو عدل ويحاسبهم بما يستحقون.

ومن حكمة مجيء اسم الرحمٰن في سياق العذاب أنّه سبحانه من رحمته أن يعذّب الكافر أو مستحق العقوبة بما يستحقّه، فلا يعذّب بفعل فعله غيره، ولا يمكّن ملائكة العذاب أن يتجاوزوا عليه، ويزيدوا في نكاله بما لا يستحقّه.

كل هذا من رحمته سبحانه، فناسب الإتيان بالرحمٰن في هذه الآية وغيرها مما يشابهها، ولله حكم أخرى لا نعلمها، الله يعلمها. ولكن الذي أريد قوله: إنّ هذه رحمته سبحانه بعبده الكافر عند عذابه وانتقامه منه، فكيف ستكون رحمته مع المؤمن المنكسر المعترف عند إرادة ثوابه وعطائه؟

**دار العجزة**

هل دار بخلدك أن «الموت» وهو موت من تجليات صفة الرحمة لدى الربّ سبحانه؟ وأن الحياة لولا الموت ستغدو شيئًا لا يُطاق؟

لنتخيل أن الله كتب على البشرية أن تحتفظ بوجودها ألف سنة فقط، وقُدّر ألا يموت إنسان في هذه المدّة الزمنية..

عند ذلك أخبرني: هل ستكفي مصادر الحياة في هذا الكون خمسين مليار إنسان إن لم يكن أكثر أو حتى أضعاف هذا الرقم الهائل؟

دعني من مصادر الحياة كالأكسجين والماء والنبات والحيوان.. حدثني عن اليابسة التي ستتحمل أعدادًا لامتناهية من البشر؟

لنترك الأسئلة الكبيرة، ولندلف إلى الأسئلة التي بحجمنا: تخيّل أنك تعود من العمل لتجد في بيتك خمسين طاعنًا في السن هم أجدادك وجداتك الأحياء منذ ألف سنة! والذين يجب عليك أن تعولهم؟ وتهيئ لهم وسائل الراحة!!

ستصبح أنت المسؤول عن دار عجزة مكتظ بأجدادك الذين يجب عليك وجوبًا عينيًّا أن تبرّهم، وتؤكلهم، وتشرّبهم، وتخفف عنهم أتعاب مئات السنين.

كيف ستجد وقتًا لإنجاز مهامك، أو حتى اللعب مع أطفالك، فالأربع والعشرون ساعة لم تعد كافية حتى تنجز ضروريات هؤلاء الأجداد؟

ثم إن امتدّت بك حياة، سيغدو سريرك بجوار أسرّتهم، وتغدو جدًّا لأحفاد، وأحفاد أحفاد.. وتعاني ما يعانون من آلام الحياة، وأتعاب السنوات العجاف!

سيغدو العالم فظيعًا لو لم يكن هناك شيء اسمه الموت!

فسبحان من رحمته فيما نكره قد تكون أعظم وأظهر من رحمته فيما نحب!

## انظر

من غرائب الأوامر الإلهيّة أمْره سبحانه لعباده أن ينظروا إلى آثار رحمة الله! هذا الأمر الذي أنستنا إياه عجلة الحياة الضخمة، وحركة الأيّام الموّارة، فلم يعد أغلبنا يمتثل له، بل الغالبية لم يخطر ببالهم أنّ أمرًا ما قد جاءهم يخصّ هذا الشيء!

إنّ لرحمة الله آثارًا تظهر في أمور كثيرة، وتتجلّى بشكل واضح في اخضرار الأرض بعد موتها.. والرب يقول لك: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ ﴾ [الروم: ٥٠].

إن رأيت أبًا يداعب ابنه الصغير، وقد امتلأ قلبه حبًّا له، وفرحة به، فانظر إلى آثار رحمة الله، وكيف صنعت هذه الرحمة تلك البسمة الجميلة، وذلك الشعور الشفيف.

إذا رأيت جائعًا يأكل باطمئنان، ويتذوّق أصناف المأكولات، لا فقر يحول دون ذلك التذوّق، ولا خوف ينغّص عليه، ولا مرض يمنعه مما يشتهيه فانظر إلى آثار رحمة الله، فرحمة الله هي وراء تلك التفاصيل الدافئة.

بل إنّ نظرك إلى آثار الرحمة من آثار الرحمة! فلولا رحمته بك لما نظرت، ولما سمعت، ولما عقلت شيئًا!

فأين هو المكان الذي يخلو من رحمة الله في هذا الكون الفسيح؟ أين هي الحركة التي لا تحرّكها رحمته سبحانه؟

إن سماعك لصوت البلبل في الصباح الباكر رحمة منه، فقد علم أنّ ذلك الصوت الجميل سينسيك كآبة البارحة، فجعل البلبل يغرّد عند نافذتك، وأنت تظنها الصدفة! وهي رحمته!

استنشاقك لرائحة المطر بعد يوم مطير، تزيّنت فيه الشوارع بمياه السماء رحمة منه، علم أن ذلك العبق ينعش روحك المتعبة، ويغسل تراكمات لبّدتها مواقف الحياة!

بل إن صوت قارئ جميل الصوت، يرتّل آيات القرآن من أعظم الرحمات! محمد رفعت وعبد الباسط والمنشاوي والحصري في صباحاتك الرائقة من جليل رحماته، كيف كانت ستبدو حياتك لولا هذه التلاوات العظيمة التي تمرّ بأسماعنا، فتملؤنا خشوعًا وحبًّا!

فافتح نافذة في عقلك، وامتثل من خلالها لأمره لك سبحانه بأن تنظر، فانظر إلى آثار رحمة الله من حولك، أحيِ قلبك بتلك الآثار، وزد حب ربّك في قلبك حبًّا وإجلالًا وتعظيمًا.

* * *




# الجميــل

سألت ابني وأنا أكتب هذه الكلمات

أن يذكر لي شيئًا جميلًا رآه،

فاستغربت من إجابته

وهو ما زال في الثامنة من عمره!

قال لي: الحياة كلّها جميلة!

# الجميـل

هل هناك نفس سويّة لا تحبّ الجمال وتهفو إليه، وتتعلّق به، وتتحدث عنه، وتجد فيه رَوحهَا وأنسهَا وسلواها؟

ربّنا سـبحانه جميـل، يقـول عنه أعلـم الناس بـه ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[1].. فهو جميل في ذاته، ويحب الجمال في غيره.. لذلك خلق الخلق على نظام الجمال، وشـرَع الشرائع وفق قواعد الجمال!

يقول ابن القيّم رحمه الله تعالى: «من أسـمائه الحسنى الجميل.. وجماله سـبحانه على أربع مراتب: جمال الذات وجمال الصفات وجمال الأفعال وجمال الأسماء»[2].

فلنطوّف سويًا بهذا الاسم، لنستجلي شـيئًا من جماله وجلاله وكماله..

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٩٣).

(٢) الفوائد لابن القيم (ص: ١٨٢).

## سبحان الله

يُروى «أنّ سليمان بن داود خرج يسير وهو جالس على كرسيّه وأصحابه جلوس معه على الكرسي عن يمينه وعن شماله، الريح تدفُّ بهم والطير تظلهم، فأشرف وهم كذلك على امرأتين من بني إسرائيل، قال: فعجِبتا مما رأتا من ذلك فقالتا: سبحان الله! لقد أوتي آل داود مُلكًا عظيمًا. فسمع قولهما سليمان، فلمّا حاذى بهما قال للريح: قفي، فوقفت. فقال لهما: ما قلتُما آنفًا حين طلعت عليكما؟ قالتا: ما قلنا إلا خيرًا يا نبيّ الله، قلنا: سبحان الله! لقد أوتي آل داود ملكًا عظيمًا. فقال لهما سليمان: فقولُكما: «سبحان الله» أفضل من جميع ما أوتي آل داود»[1]..

نحن غير متصورين أن الله سبحانه قد يخلق خلقًا عظيمًا، أو جميلًا، أو غريبًا فقط حتى يقول أحد عبيده في دهر من الدهور: «سبحان الله!»..

فهو يخلق الشيء الجميل لأنه جميل، ولا يأتي من الجميل سبحانه إلا الجميل، ويخلقه لأنّه يحب الجمال، ويخلقه أيضًا ليسبّحه العبد ويشكره ويعبده وهو يتراءى ذلك الجمال، ويخلقه لتتطبّع نفوس عباده على الجمال!

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٢/ ٢٧٥).



## السلّة العجيبة

لاحظتُ قبل سنوات ذلك القدر الكبير من الجمال الذي يسكن شيئًا لطيفًا جميلًا لا يخلو يوم دون أن نراه أو نمسكه أو نتذوقه! فجعلتني تلك الملاحظة أذهب إلى أحد المتاجر وأشتري قَدرًا من ذلك الشيء، لأتأمل الجمال الأخّاذ في خلقه وصنعته.

اسم ذلك المخلوق العجيب «الفاكهة»!

اشتريت من كل نوع تقريبًا كميّة قليلة، ثم وضعتها في إناء، وجلست أنا وأبنائي نتأمّلها ثمرة ثمرة، ونسبّح الله.

لم أكن أعلم أنّي بذلك ألْفِتُ نظر ذاتي إلى فكرة ستسيطر عليّ لاحقًا، ألا وهي جماليّة الخلق، وأنّ جمالَ المخلوق، وبعثَه في النفس الراحةَ والجمالَ كان من ضمن مقاصد الخلق، وأنّ جمال الخلق من الأدلّة على جمال الخالق، فلن يخلق الجمال إلا وهو جميل سبحانه.

ولعل كثرة التسبيح في القرآن الكريم، والأمر به في السنّة النبوية، هو لأن خالق الكون سبحانه قد بنى هذا الكون على دعائم من الإبهار والإدهاش الذي يستنطق التسبيح فطرة، ودون الحاجة إلى تعمّق في التفكير والاستدلال.

## برتقالة ورمّانة

فالبرتقالة على سبيل المثال وجودها يستحق أن تقول: سبحان الله! فوجود شيء دون أن تدعو الله أن يخلقه، بل دون أن تعلم أنّك تحتاج إليه، مع احتوائه على فوائد جمّة هذا كاف لتسبح الله.

ثم خلقُه بهذا الشكل الكروي الجميل، والحجم اللطيف يستحق تسبيحًا ثانيًا..

ثم صبغُه بهذا اللون الأخّاذ سبب آخر يحتاج إلى تسبيح آخر.

ثم ترتيب وتنضيد حبّاته بالداخل على هيئة جميلة وصف محكم يستنطق تسبيحًا أعمق..

ثم جعله بهذه اللذة الفائقة التي تنعش متذوقها يجعل دقات الفؤاد تستحيل تسبيحًا وإجلالًا.

هذه حبة برتقال واحدة، احتجت معها إلى أن تستغرق في بحر من التسبيح لهذا الخالق العظيم، فكيف لو استعرضت سلة فواكه مليئة بألوان الجمال، وأصناف اللذائذ؟ بل كيف لو تأملت ما هو فوق تلك السلة من أعاجيب المخلوقات البديعة؟ سبحانك ما أعظمك!

رأيت ذات مرّة رمّانة صافية اللون، قد اصطفت حبّاتها بإتقان عجيب، فملأ قلبي منظرها بشعور غريب، كتبت وأنا بأثره: إن شكل

الرمان البديع، ولون الرمّان الأخّاذ، وطعم الرمان اللذيذ، واصطفاف حبات الرمان المتقن، كفيل بصفع غرور أعتى ملاحدة الدنيا..

وقد طفا على سطح خيالي سؤال تردد مع كل فاكهة أسرح فيها نظري: لماذا أراد الله أن تكون هذه الفاكهة جميلة؟ ألا يكفي في مسألة الفاكهة ما تحتويه من ألياف وفيتامينات وفوائد صحيّة؟ لماذا كانت جميلة؟ كان يهجم عليّ هذا السؤال، ثم لا أجد له جوابًا أستطيع أن أعبر عنه، وإنما أستطيع أن أشعر به..

### الفراشة

يرى الملاحدة جمال الفراشة، وبديع خلق الله لجناحها ذي النقوش العجيبة، والألوان رائعة الجمال، فلا يُخضعون عقولهم للخالق، ويقولون: «سبحان الله» بل يبحثون عن مخرج من ورطتهم، فيقولون: إن تلك النقوش والألوان مما أسدته الطبيعة (العمياء!) لهذا النوع من الحشرات بغرض لفت نظر الطرف الآخر، ليحصل التزاوج، وبقاء النوع!

مضحكون هم! يستطيعون أن يأتوا بالغرائب ليهربوا من الله! ولكنّ نَفَسَهم في هذا الهرب قصير جدًّا!

إذ بماذا يجيبون عن سرّ جمال الفراولة؟ هل الانتخاب الطبيعي هو السبب الذي جَعَل لونها بهذه الكيفية؟ وشكلها

بهذه الفـرادة؟ وطعمها بهـذه اللذة؟ حتى تجـذب إليها حبوب اللقاح؟

وماذا عـن الأناناس؟ والكرز؟ والتفـاح؟ وما هي النظريّة التي ستخرجهم من أزمة الرمّان؟ والعنب؟ وما هي الغريزة التي تحتويها النخلة وتضطرها لتبدو بهذا المنظر الشامخ الجميل؟

ثم بما أنّ الطبيعة (العمياء) اكتشفت مصادفة أن اللون الأصفر جاذب لذكور الفراش، فلماذا لم توحّد لون الفراش؟ لماذا جعلت هنـاك فراشـة صفـراء وأخـرى زرقـاء، وثالثـة مزجتهـا بالأسـود والأبيض؟

وإذا كانـت ذكور الفراش هـي التي تهفو للإنـاث فتحتاج إلى ألـوان محفّـزة وجاذبـة، فما سـرّ اصطبـاغ الذكـور بتلـك الألوان الجميلة في حين أنّ الإناث هي المرغوب فيها لا الراغبة؟

ولماذا يشترك ذكور الحشرات مع الجنس البشري في الذوق؟ فتراهـم يُعجبـون بنفـس الألـوان والأشـكال والزخـارف، فتلفت إعجابهم، وتجذب أنظارهم؟

وإذا كانـت للطبيعة قدرة علـى أن تغيّر الألوان بحسـب مزاج ذكـور الفـراش؟ فلمـاذا لا تغيّر مـزاج ذكـور الفراش ذاتـه بحيث تصبح الفراشة جاذبة بحد ذاتها، بغض النظر عن لونها؟

لـم يدُرْ بخَلَد الملحـد أنّ عليه قبل أن يقـرر أن يكفر بالله، أنْ يحضّر أجوبة لأسـئلة بعدد ذرّات هذا الكون كلّها تفضح شـعوره الكامن بوجود الله، وبعظمته، وبقدرته، وبجماله!

سـألت ابني وأنا أكتب هذه الكلمات أن يذكر لي شيئًا جميلًا رآه! فاسـتغربت من إجابته وهـو ما زال في الثامنـة من عمره! قال لي: الحياة كلّها جميلة!

وصدق حفظه الله وحفظ أبناء المسلمين، وهل هناك زاوية في هذا الكون ينقصها الجمال، أو يعوزها عنصر الإبهار؟

### نغمة الصباح

جاء رجل إلى الإمـام مالك وقد علاه الهم، فقد قال قولًا ظنّه قد ألجأه إلى أن يفارق زوجته، فقـال له: يا إمام قلت لزوجتي: إن لم تكوني أجمل مـن القمر فأنت طالق! فقـال الإمام: زوجتك لم تطلق! فقال الرجل: كيف والقمر أجمل منها؟ قال الإمام مالك: بل هي أجمل! ألم تقرأ قول الله تعالى في كتابه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]؟

مشـكلتنا أننا نظـن الجمال فـي الإنسـان مقتصرًا على شـكل عينيه، وملامح وجهه، وجمال ابتسامته، وننسى الجمال في قامته، وكيف أنّ مشيه على رجلين أجمل من كونه كان يمشي على أربع!

وننسى جمال نُطقه بالحروف حين يتكلّم وكيف أن مثل هذا الإجراء أجمل بكثير من لو أنّ الإنسان يتخاطب بالخوار أو المواء أو النباح! وننسى الجمال في ملمس جلده، وكيف سيكون منظره مرعبًا لو كان جسده مغطًى بالفرو أو الريش!

الصباح مسرح من مسارح الجمال، كل شيء فيه موضوع بجمال! تستيقظ على أذان الفجر البهيّ، وعلى نور أزرق ساحر، ثم تأتي أشعّة الشمس لترسم بدايات اليوم بريشتها الفتيّة، ثم تبدأ نغمات الطيور..

هل قلت: الطيور؟

وهل هناك جمال يمكن أن نتحدّث عنه بمعزل عن الطيور والعصافير بأنواعها، عن غناء الكناري وشقشقة البلابل، وحداء طيور الحب؟

حتى صوت الحمام، ذلك الصوت الغامض، لهو دليل على أن خالق الجمال يجعل الأشياء الغامضة جزءًا من لوحة جميلة، ستفقد الكثير من روحها لولا تلك الألغاز الغامضة..

انظر إلى الطيور بكل ألوانها وأنواعها وحركاتها.. لتدرك أنّ الله جميل يحبّ الجمال! لا يحبّه منك فقط، بل يحبّ أن يوجده في الكون، فيغدو الكون مترعًا به، مكتظًّا بتفاصيله المبهرة!

## الحاجة إلى الغباء

لا تحتاج أن تُلقِمَ ذلك الرافض لوجود خالقه بالحجج المنطقية ليعود إلى رشده، فقط أنت بحاجة إلى أن تسمعه صوت الكناري! ولون طائر الروز، ومرح طائر الكروان!

وبصدق فإنّ الرافض لوجود الله يحتاج أن يسلّم عقله إلى أمور مغيّبة لا يدرك كنهها أكثر بكثير من المؤمن بوجود الله!

بل يحتاج الرافض لوجود الله أن يكون غبيًّا بقدر كبير حتى يغض طرفه عن هذا القدر العظيم من الأدلّة والإشارات التي تشير إلى الله في كل لحظة تمرّ به في حياته..

يحتاج الملحد أن يكون ميتافيزيقيًّا بقدر كبير جدًّا حتى يؤمن بتلك الحزمة الكبيرة من التناقضات، والخيالات، والغباءات!






# الـوهـاب

افترض أن شخصًا لديه ملك قارون،
ولكنّه أعمى، وأرادك على أن تعطيه بصرك
بما شئت من ماله، فكم ستطلب منه؟
دعني أختصر لك التقديرات:
إنّك لن تتنازل عن بصرك بأموال قارون كلّها!!
هذه إحدى النعم التي نادرًا ما تشعر بها..

# الـوهــاب

ومن أسـمائه سـبحانه الوهاب، وهو اسـم كرم وجـود وغنى!
وصيغة فعّـال تعني المبالغة، فليس سـبحانه واهبًا بـل وهّابًا: كثيرًا ما يهب ويعطي ويجود، لذلك سمّى نفسه بالوهّاب..

فيعطي من يسأله ومن لا يسأله!

ويعطي من يحتاج ومن لا يحتاج!

ويعطي من يعبده ومن لا يعبده!

## وكان الوهاب

لأنه **يهـب كثيرًا**: فالكرمـاء يعطونك مرّة، فـإن طلبت منهم مرّة ثانية، قد يتأففون لطلبك! أما الله سبحانه فهو يهب عطاءات لا حدّ لها، ثم يرضى عنك إذا طلبت منه، بل إنّه يأمرك أمرًا أن تطلب منه ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠] وإنّك لو أخذت تحصي ما وهبك إيّاه سبحانه لأتعبك العدّ..

بـل إنـك إن أردت أن تسـتوهبه شـيئًا فـإنّ مـن طُـرق هـذا الاستيهاب والاستجداء أن تذكر في دعائك بعض ما سبق ووهبك إيّاه، فتكون هبته السـالفة أمرًا تسـتجدي به هبة جديدة! فهذا نبي الله زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول في دعائه العظيم: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]، أي: لـم أكـن خائـبًا فـي دعواتي السـالفة، بل أجبتها لي سـبحانك! فأجـب لي هذا الدعاء.. يقول ابن عاشـور رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم أكن فيما دعوتك من قبـل مردود الدعوة منك، أي: أنه قد عهد من الله الاستجابة كلما دعاه»[1].

**ويهب عظيمًا**: فكرماء بنـي آدم يهبون ـ في العادة ـ المال، أما الله فـإن المال أقـل ما يهبك إيّـاه! فهو يهـب الحياة ذاتهـا، ويهب العقـل، ويهب الذريّة، بـل ويهب النبوّة، والولايـة، ويهب الملك، ويهب الكرامات التي تحير العقول، وتدهش الألباب.

نعم، يُذهِل بالعطاء، فقد أعطى سـليمان ملـكًا لا ينبغي لأحد من بعده..

وأعطى زكريّا الذريّة بعد أن بلغ من الكبر عتيًّا..

وأعطى نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ النصرة، فأنزل مطرًا أغرق به كل كافر على وجه الأرض استجابة لدعائه.

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/٦٦).

شق لموسى البحر، ورفع عيسى إلى السماء، وأسرى بمحمد ﷺ إلى سدرة المنتهى..

**ويهب أعداءه**: فلا كريم من كرماء البشر يجد في نفسه ما يدعوه إلى أن يكرم أعداءه، ويتفضّل على خصومه، أما الوهاب سبحانه، فحتى أعداؤه والمجاهرون بسبّه ـ تعالى وتقدّس ـ لهم من فيء مواهبه قَسْمٌ، وفي ديوان عطاءاته اسمٌ.. وهذا النوع من المواهب يجعل قلوب العباد متلهفة، متيقنة بكرمه سبحانه، فهل هناك أعدى من إبليس، والذي استجداه الحياة ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر: ٣٦] فوهبه حياة ما وهبها أقرب أنبيائه، وأخصّ أوليائه.. وهبه شبه الخلود في هذه الحياة! ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨].

لهذا كلّه، ولغير هذا كان اسمه الوهّاب سبحانه..

## قارون يشتري بصرك

مشكلتنا أننا لا نعرف قيمة ما لدينا من نعم، وإلا لعرفنا معها معنى الوهّاب، فطلبنا منه سبحانه كل شيء..

ما قيمة بصرك؟ والذي أعطاك إيّاه بلا طلب، بل وقبل أن تشعر بحاجتك إليه!

افترض أن شـخصًا لديه ملك قارون، ولكنّه أعمى، وأرادك على أن تعطيه بصرك بما شئت مـن ماله، فكم سـتطلبه؟ دعني أختصر لك التقديرات: إنّك لـن تتنازل عن بصرك بأموال قارون كلّهـا!! هذه إحـدى النعـم التي نـادرًا ما تشـعر بهـا.. فكيف لو حاولت إحصاء بقية النعم، أو على الأقل أهمّها بالنسبة لك؟ لقد أعطاك في جسـدك فقـط المليـارات، بل أكثـر من ذلـك! أتعلم لماذا؟ لأنّـه الوهاب؛ يهب دون أن يُطلب، وقبل أن يُسـتوهب.. والسـؤال: ما دامت هـذه عطاءاته قبل السـؤال، فكيف سـتكون عطاءاته بعد السؤال؟

## ضع نقطة

شاب يشغر منصبًا مرموقًا في إحدى الشركات، ودخله ممتاز، ولديه سـيّارة وزوجة ومنزل، وحياتـه هنيئة، حدّثنـي، قال: إن كل هذه النعـم لم يكن ينعـم بها عندمـا كان موظفًا بسـيطًا في إحدى الشركات في المنطقة الشرقية، وأخبرني أنّه كان مصرًّا على بعض الذنـوب، قـال: فذهبـت ذات يقظـة إلـى مكّـة لأداء العمـرة، قال فأدركنـي في تلك العمرة شـعور بضرورة أن أضـع نقطة بعد تلك السـنوات المليئة بالذنوب، قال: فعاهدت الله فـي الحرم أن تكون تلك العمـرة نهاية ذلـك التاريخ القاتـم، وبداية عهـد جديد، قال: وبينما كنت في المسـعى، إذا بي أجد صديقًا قديمًا، وبعد السـلام

والاستخبار عن الأحوال، سألته عن مقرّ الشركة الفلانية في مكة فأرشدني، ومن الغد كنت فيها فتعرفت إلى مسؤول فيها أعجب بي، وكانت هناك مقابلة شخصية في اليوم التالي في الفرع الرئيس في جدة، فشفع لي لأدخل المقابلة، فاجتزتها بنجاح، وحصلت على الوظيفة، وانفتحت لي أبواب السعادة! الوهاب أغرقه بالنعم لأنّه أعلن (بصدق) انتهاء تاريخ الضياع.. يوم واحد هو الفارق بين توبته، وبداية حياته الرغيدة!

ليس ذلك الشاب بِدْعًا من الشباب، ومن البشر الذين يصبّ الله عليهم الرزق صبًّا، ويعطي حياتهم معنى بعد أن كانت بلا معنى، الحياة تكاد تتكوّن من هؤلاء، إن الوهّاب لم يخلق بابًا دون هباته وعطاياه، فقط قل: يا الله، ثم استبشر خيرًا..

### الإخفاق المبارك

وكم استعجبتُ من سليمان عليه السلام، إذ كيف يقول: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي﴾ [ص: ٣٥] كيف جمع بين الاستغفار من الذنب، والطلب؟

لقد اعتقدنا أن الطلب قرين التقرّب والتزلّف منه سبحانه، فإذا بسليمان عليه السلام يعطينا درسًا من دروس الطلب مفاده: استغل أوبتك من إخفاقاتك بطلب أبعد خيالاتك!

لم يطلب سليمان تلك اللحظة بيتًا جميلًا، ولا حتى قصرًا منيفًا، ولا جزيرة من ذهب؟ لا! بل طلب ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، ثم ختم دعاءه باسم عظيم من أسمائه سبحانه، ختمه باسم يصلح للتملّق للحي الذي لا يموت، ختم دعاءه بـ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨] إنّك أنت الذي لا تستعظم أن تهب الهبات العظيمة، ولا يستبعد راجيك أن تأتيه بأبعد ما يتخيّل!

يريد سليمان ملكًا خاصًا به، فيعطيه الوهاب ملكًا من أعجب الأملاك: سخّر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين في الأصفاد! فصار ينتقل من مشارق الأرض إلى مغاربها بالريح تنقله هو وحاشيته، والشياطين تغوص في أعماق البحار تجلب له أغلى الكنوز والجواهر، وتشيّد له أضخم القصور وأجملها.

أتظن أن الله سبحانه أورد هذه العجائب حتى نتعلّق بسليمان عليه السلام وقد مات من مئات السنين، أم لنتعلق بالحي الذي لا يموت، ونطلبه بيقين؟

أتظن أن الله ذكر هذه العطاءات لتكون نظمًا قرآنيًا فريدًا نقرؤه مفرّغًا من معناه؟ أم لنحوّله إلى أدعية وأذكار وابتهالات نعطّر بها مواضع سجودنا في ظلام الليالي الحالكة؟

ملأ حياتـك بالاحتياجات، ثم قـال لك: أنا الوهـاب! ثم أنت تصر على عدم معرفتك للعنصـر الثالث من هذه المعادلة! العنصر الثالث هو: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].. أفهمت الآن؟

اطلب واجعل سقف دعواتك أعلى ما يمكن.. وسأحكي لك الآن قصة الدعوات التي بلا سقف!

## دعاء بلا سقف

نحن نعلم أن من حكم ذكـر قصص الأنبياء في القرآن الكريم أن يكونوا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قدوة لنا، نتأسّى بهديهم، ونقتدي بهم..

ومما لفت نظري وأنا أقرأ وأتأمل في دعاء الأنبياء في القرآن الكريم أنّ هناك شـبه توافق بينها! فكثير من دعوات الأنبياء التي جاء ذكر اسـتجابتها في القرآن كانت تتسم بِسِمةٍ غريبة، وسوف تتعجّـب إن تأمّلتهـا معـي الآن! هـذه السـمة أختصرهـا بقولي: «غرابة الدعاء»!

لـم يكن الأنبياء في كثير من دعواتهم يدعون بالقريب وإنما بالغريب!

فهذا سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكرنا قبل قليل أنّه دعا الله بدعاء في ذروة الغرابة فقـال: ﴿ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ إِنَّكَ

﴿أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥] هو لا يطلب من الله الملك، ولا يطلب منه الملك العظيم، بل يطلب منه ملكًا لا ينبغي لأحد أن يحصل عليه أو يتمتع بمزاياه! فكيف كانت الإجابة؟ لقد جاءت عقب الدعاء مباشرة: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٦ ـ ٣٩]!

وهذا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما آذاه كفّار قومه، كان المتوقع والقريب أن يدعو على قومه بالهلاك، ولكنّه لم يفعل ذلك، بل عمم دعوته فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].. فكان أن دعا على كل كافر على ظهر الأرض! دعاء بالغ الغرابة! وبقدر غرابته جاءت مسرعة إجابتُه! فقال الحق سبحانه: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١، ١٢]!

وهذا زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان دعاؤه بالغ الغرابة أيضًا: رجل كبر سنّه، ورقّ عظمه، ونحل جسمه، واشتعل رأسه شيبًا، وامرأته عاقر، ومع ذلك يكون دعاؤه هو ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، كل المؤشرات تجعل أن يرزق مثل هذا بالولد في عداد المستحيلات!

هـل رضخ زكريـا لكـون دعائـه غريبًـا؟ كلا! بـل زاده غرابة: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: ٥، ٦]

هو لا يريد ولدًا هكذا.. وإنما يريده بمواصفات نادرة جدًّا!

ومع ذلك يقول الوهاب سبحانه: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]!

ونبي الله موسـى عليه السلام يسـأل ربّه في تضرّع وإخبـات، وتنهمر دعواتـه انهمـارًا، ومـن بين رغباتـه التـي رفعها فـي ذلـك الدعاء المبارك رغبة موغلة في الغرابة! فهو عليه السلام صار نبيًّا للتوّ، ومع ذلك فهو يدعـو ربّـه أن يرزق أخـاه هارون النبـوّة كذلـك! فقال عليه السلام: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ﴾ [طه: ٢٩، ٣٠] ولا نعلم عن أحد دعا لأحد بالنبوّة غير موسى عليه السلام!

فيقـول الكريم سـبحانه بعد هـذه الدعـوة: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٦] فجعل سـبحانه هارون نبيًّا مع موسـى، يؤازره، ويسـانده! فالنبـوّة تلـك المنزلـة الرفيعـة، والمكانـة المنيفـة يهبها سـبحانه لعبد في دهاليز الحياة، لم تخطر لـه النبوّة على بال، فقط لأنّ أخاه دعا له بها!

### فاستجبنا له

لما نظرت في القرآن وجدت ارتباطًا وثيقًا بين اسم الوهّاب، وفعل الوهب، وبين الذريّة والولد..

نعم قد يذكر في القرآن غير ذلك كالعلم، والملك.. ولكن لطلب الذرية ولإعطاء الذريّة علاقة بهذا الاسم قويّة وواضحة، اقرأ:

﴿ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران: ٣٨].

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥].

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٠].

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ﴾ [ص: ٣٠].

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ [الشورى: ٤٩].

ومن مقتضيات المعرفة الإيمانية، بل والعقلية أن تستخدم في طلبك ما يناسب مطلوبك، فلا يعقل أن تطلب من أمير مالًا

ـ مثلًا ـ فتقول له: أريد مالًا أيّها المتواضع! أو أيّها الشجاع! بل تصفه في هذا السياق بالكرم والجود والبذل والإحسان..

وكذلك رب العالمين إن كنت تطلب منه الذريّة فلا أنسب من استخدامك لاسم الوهاب، وصفة الوهب، مع حضور القلب، والإلحاح والثقة، وربنا كريم وهاب، لا يعجزه شيء، ولا يعظم عليه شيء.

**الهبات**

من كرمه سبحانه أنّه يعطي المكانة العالية، والمنزلة الرفيعة، ولا يستكثر ذلك، بل يهبه بكرم وجود، حتى تكاد العقول أن تطيش لذلك الكرم العظيم، وتلك الهبات الجزيلة!

هذه امرأة عمران نذرت لله ما في بطنها محررًا لخدمة بيت المقدس، وظنّته ذكرًا، فكانت أنثى! وليس الذكر كالأنثى، ولكنّ الله تقبّل ذلك النذر، فكان ماذا؟

وهبها سبحانه المرأة الصالحة القانتة الخاشعة مريم عليها السلام فكانت من أعبد أهل الأرض، ومن النساء القليلات اللواتي كمُلن! ثم إن الكريم سبحانه زاد في كرمه وعطائه فجعل تلك المرأة أمًّا لعظيم من عظماء البشر، وأحد أهم خمسة في هذا العالم، عيسى عليه السلام ! فهل كان يدور في خلد امرأة عمران أنّ نذرها سيُتقبّل بهذا السخاء؟

يوحي سبحانه إلى إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] فيرزقه الإمامة، بل إنّ موضع قدميه (المقام) يغدو موضعًا له قداسته بأمر الله تعالى.

ويهبه من الذريّة على حين كبر إسماعيل، ثم يرزقه إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، ثم يقول: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].. ففي اللحظة التي يحتاج فيها خليله الولد، يكون الكرم هو أن يعطيه الولد، ولكن ما فوق الكرم أن يغدو ذلك الولد نبيًّا هو وابنه، بل حتى الحفيد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يغدو نبيًّا..

ومن مظاهر كرمه أنّه يجازي القليل بالكثير، ويثيب على العمل اليسير إذا كان خالصًا صوابًا بالعطاء الجزيل!

فهذه امرأة من بني إسرائيل سقت كلبًا فأدخلها جنّة عرضها السماوات والأرض!

ولك أن تقارن بين جنّة عرضها السماوات والأرض وشيء من الماء يشربه كلب! وكيف أن مثل هذا العطاء مقابل هذا العمل لا يكون إلا من وهّاب، يهب بلا حساب!

* * *



## الحق

الليل مرهق جدًّا بالنسبة لأولئك
الذين يعاندون الله، ويكفرون به!
لأنّ الليل يحمل من الهدوء ما يجعل
ذلك الضجيج الإلحادي يخفت،
لتبدأ آيات الله بالظهور في داخل الرجل
الذي ينكر في الصباح وجود هذا الرب العظيم!

# الحق المبين

من أسـمائه سـبحانه الحقّ المبين، فهو الحق الذي ليس بعده إلا الباطل، ظاهر ظهورًا جليًّـا، لا يماري في وجوده، وفي عليائه، وفي جلاله إلا أعمى البصيرة.

وفي كل شـيء له آية، وفي كل خلق له برهـان، لا تفنى آياته، ولا تنقضي براهينه.

لا يمكـن للعبد أن ينظر في حياته نظرة إلا وفيها ما يشـير إلى الخالق، ولا يسمع همسـة إلا وتحتوي على أدلة تشهد بوحدانيته، ولا يتحرك حركة إلا وفيها آثار رحمة الله تعالى! لأنه الحق المبين وما سواه الباطل والضلال البعيد!

### انظروا

ليس هناك ما هو واضـح في هذا الوجود وضوح ربّه الذي أوجده، إنّـك تكاد تـرى في كل شـيء حولك ما يدلّـك عليه، ويشير إليه!

وصدق أبو نواس حين قال:

**وفـي كلّ شـيء لـه آيـة تـدلّ علـى أنّـه الواحـد!**

ودائمًـا ما تبهرنـي آيـة عظيمـة في سـورة يونـس، وأتوقّف عندهـا طويـلًا، يقول فيهـا الـربّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مجيبًـا طلب المشـركين للآيـات والعلامـات الدالّة عليـه: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]..

لنعد قليلًا إلى آية في بداية السورة رقمها (٢٠) يقول الله تعالى فيها: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [يونس: ٢٠]! هم يريدون آية ليؤمنوا، آية واحدة تكفيهم حتى يعلنوا إيمانهم!

فتأتي الآية رقم (١٠١) لتقول لهم: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾..

هناك حشد هائل من الآيات تمور حولنا، لا تحتاج منا إلا إلى النظر العابر، حتى نتفاجأ بها! والآيات أنواع وأشكال ومستويات.. لذلك قال: ﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ليتأمل كل إنسـان الآيات التي حوله، والتي يمكن لعقله فهمها ورؤية عظمة الله فيها.. يقول الطاهر بن عاشـور: «وقد عمم ما في السـماوات والأرض لتتوجه كل نفس إلى ما هو أقرب إليها، وأيسر استدلال عليه لديها»![1].

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٢٩٥).

فقط انظروا حولكم، فكل شيء ترونه هو آية عليه، ودلالة واضحة تشير إليه ﷻ! فما نوع الآية التي تطلبونها؟ وأنتم بعض آياته، وجزء من البراهين عليه..

ومن وضوحه سبحانه وكونه بيّنًا أنّه يظهر على ألسنة الذين يكفرون به! فهناك في أعماقهم إيمان يسعون إلى دفنه ومواراته، وقد كشف الله تلك الطبيعة فيهم فقال عنهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] هناك يقين في أعماقهم يغلّفونه بالكفر والصدود عنه سبحانه! والسؤال المؤلم: ما الذي يجعلهم يهربون منه وهو الودود؟ وما الذي يجعلهم ينكرون وجوده وهو الكبير المتعال؟ وما الذي يدفعهم إلى معاندته وهو اللطيف الخبير؟

يقول عالم الفيزياء الملحد «ستيفن هوكنج» في أحد كتبه التي يُنظّر فيها للكفر بالله: «حينها سنعرف كيف يفكّر الله»، تعالى الله عن هذا التعبير القميء! ولكن انظر أخي القارئ كيف أنّ الحق المبين ظهر من مثل هذا الكاتب الذي ينفي وجوده أصلًا، لتعلم أنّهم ينفون ما تنبض به قلوبهم رغمًا عنهم!

وهذا الملحد «ستيفن واينبرغ» يلاحظ دلائل اسم الله المبين فيقول في كتابه «الحلم بالنظريّة النهائيّة»: «يحمل البعض رؤى عريضة ومرنة جدًّا عن الإله، بحيث إنّهم سيجدون الإله أينما بحثوا»!

إن وجود آثار الإله في كل زاوية من زوايا الحياة ملاحظة يعرفها جيّدًا أولئك الذين ينكرون وجوده! وهو أكثر ظهورًا من الوجود ذاته!

إنّهم يضيقون ذرعًا بكثرة الأدلة الدالّة عليه، لذلك فإنّ كتبهم التي ينكرون فيها وجوده تتكاثر وتتزايد، ولن ننتهي؛ لأنّ في كل شيء له آية تدلّ على أنّه الواحد.

وعندما ظهر اسم «الله» كثيرًا في كتابات عالم الرياضيات الأشهر «أينشتاين» وهو من أئمة الإلحاد في هذا العصر، حاول تلاميذه أن يصلوا لفكرة تجعل مثل هذا الأمر مقبولًا في الأروقة الإلحاديّة، فسمّوا هذا الفعل بالدين الأينشتاني.. وقد عقد «ريتشارد دوكينز» فصلًا في كتابه الشهير «وهم الإله» يناقش فيه مثل هذه الظاهرة المحرجة، وأعني بها ظهور كلمات وانطباعات إيمانيّة عميقة عبر كلام الملاحدة، وحاول دوكينز أن يجعل مثل هذا أمرًا طبيعيًا لا يخالف قوانين الإلحاد النافية لوجود الإله.

وفات هذا الشيطان أن يعلم أنّ من أسماء الله وصفاته أنّه مبين يظهر في كل أطياف الحياة، وكل تفاصيل الكون، وكل أنفاس المخلوقات الهائمة! بل حتى أولئك الذين ينفون وجوده، يتراءونه في وجودهم!

## وفي الليل

يقـول أحدهـم: إنّ أعتـى الملاحدة يتحـوّل فـي الليل إلى نصف مؤمن!

الليـل مرهـق جـدًّا بالنسـبة لأولئـك الذيـن يعانـدون الله، ويكفـرون بـه! لأنّ الليـل يحمـل مـن الهـدوء ما يجعـل ذلك الضجيج الإلحادي يخفـت، لتبدأ آيـات الله بالظهور في داخل الرجل الذي ينكر في الصباح وجود هذا الرب العظيم!

يقول صاحب كتاب «اللامنتمي»: «الساعة الآن الثالثة ليلًا، وقد أنهيت كتابة مقالـة أنكر فيها وجود الله، وحين ذهبت لأنام لم أستطع إطفاء النور؛ خوفًا مما سيفعله الله بي»!

هو أعظم مـن أن تنكره، وأظهر من أن يغمُض عليك، وفي الوقت الذي تنشئ فيه ردودًا ـ تظنّها منطقيّة ـ على أدلّة وجوده، تظهر لك أدلّة أكثر إلحاحًا، وأعمق إصرارًا!

إن الرعـب الـذي يتسـلل إلـى قلبـك وأنت تسـمع صوت الرعود أثناء استلقائك على سـريرك ليـلًا دليل علـى أنّ الذي خلق هـذا الرعب فـي قلبـك أراد أن يـذلّ كبرياءك بشـيء من الخوف، حتى تؤمن به!

## لقد علمت

قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الإسراء: ١٠٢]..

لقد علمت ذلك جيّدًا، إن نفسك تفضحك، ودعوى أنك الرب الأعلى تنفيها أمور أنت تعلمها جيّدًا في قرارة نفسك!

ولكن كما قال تعالى: ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ [غافر: ٥٦]. الكبر يدفن بذور الإيمان، ويحاول أن يطمس تلك الآيات التي تظهر آناء الليل وأطراف النهار في هذا العالم المؤمن، يطمسها في تلك النفوس النزقة، المراهقة، الصغيرة جدًّا.

قال أينشتاين في لحظة تجلّ: «إن خلف ما نعرفه ونحسّ به يوجد شيء لا يمكننا إدراكه، وهذا الشيء يمسّنا بجماله وسموّه بطريقة غير مباشرة»! تُرى ما هو ذلك الشيء الذي يشعر به أينشتاين في أعماقه ثم لا يمكنه التعبير عنه؟

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل: ١٤]..

## طبيعة طبيعة

سمعت قديمًا رجلًا يدّعي أنّه ينكر وجود الله، واستعجبت من أنّه كلما أراد أن يثبت شيئًا حلف بالله! حتى إنّه يكاد أن يقول: والله إنّ الله غير موجود!

يُذكر أن الشاعر حافظ إبراهيم ذهب مع صاحبه «ميشيل شبلي» والذي كان ملحدًا! لحضور أمسية شعريّة، وكان الجمهور كلّما أعجبهم بيت من القصيدة التي تُلقى هتفوا: الله الله..

نظر حافظ إلى «ميشيل» وقال له: وأنت، بماذا ستهتف؟ طبيعة طبيعة؟

لا شكّ أن الذي يُنكر وجود الحقّ المبين سيكون في مأزق حتى مع هتافه الطبيعي، وتصرّفاته العفويّة..

عاصفة هوجاء تضرب إسطنبول، وتقذف بالحديد والخشب والناس، وتسكن الرعب في قلوب أولئك الشاخصين بأبصارهم من نوافذ بيوتهم! وعند أحد الجسور يتردد أحدهم في عبور الجسر بدراجته، كان ينظر إلى الطبيعة التي يعبدها ولا يعبد ربًّا غيرها وهي تزمجر في وجهه، دخل إلى الجسر بكفره وعناده، وفي وسط الجسر، يلتقي مع قوّة القوي، وجبروت الجبار، يلتقي مع دليل من أدلة الحق المبين، يلتقي مع الخوف والذعر وهو ينكّس الكبرياء في نفسه، فيقرر في منتصف الجسر أن يخلع الإلحاد، ويرتذي الإيمان! يقول بعد ذلك: دخلت الجسر ملحدًا، وخرجت منه مؤمنًا!

خرج مؤمنًا لأن الله هو الحق المبين!

## أفي الله شك؟

كنت في وادي «ذي غزال» بالطائف قبل خمس وعشرين سنة، وأصابني الأرق ليلًا، فخرجت من الخيمة التي كنت مستلقيًا فيها، وتفاجأت بمسرح عظيم في سقف الكون مليء بالحياة!

أخذت أرقب النجوم المضيئة، والشهب التي تتحرّك بسرعة رهيبة! لقد شعرت في تلك الليلة أنّ الله أعظم من أن يكون غامضًا، أو أن يخفى، إنّ ربًّا خلق هذه اللوحة البديعة، لا يريد حتمًا أن يكون غامضًا يُستدل على وجوده بأدلّة لا يفهمها إلا الأذكياء جدًّا!

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]؟ هكذا يقول تعالى عن نفسه؟ هل هناك شكوك تساور عقلًا ما حول «الله»؟

سئل أعرابي: بم عرفت ربّك؟ فأجاب بفطرته: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدل على السميع البصير؟

## الجنّة

كيف يكون غامض الوجود من إذا دعوته أجابك؟ وإذا دهمك خطب تجد ضرورة ما في نفسك تتجه إلى العلوّ؟ وإذا ألمّ بك مرض جعلت آهاتك وتضرّعاتك تطرق باب سماواته في الليل؟



«لورانس بـراون» طبيب ملحـد! ولدت له ابنـة مصابة بمرض «ضيق في برزخ الأبهر» وهو مرض يجعـل جلد المصاب به يميل إلى الزرقة لعدم وصول الأكسـجين إلى سائر الجسد! وفي إحدى نوبات تلك الطفلة أسرع لورانس إلى المستشفى مع أنّه يعلم جيّدًا أنّه لا حل لدى أولئك الأطباء! فالمرض قاتل!

يقول: إنّه وضع ابنته بين الأطباء الذين سارعوا في وضعها في العناية المركـزة، وانصرف إلـى غرفة من غرف المستشـفى! غرفة يتخايل فيها رب هذا الكون! الذي لا يؤمن به..

مكث خمس عشرة دقيقة وهو على يقين أنّه سيعود ليستلم جثة ابنته! كانـت لحظات عصيبة.. وبقـدر إنكاره وجـود الله، إلا أنّ الله تعالـى كان في تلك الغرفة أظهر ما يكـون، وأوضح ما يكون، فقال برجاء: إن كنت موجودًا أيها الإله فاشف ابنتي! قالها وهو يتيقن أنّه لا شفاء لها، الطب (وهو طبيب حاذق) عاجز عن شفاء حالتها..

يقول: فخرجت فإذا بالأطباء يهمهمون بغرابة، فأمررت بصري بينهم فإذا ابنتي جالسـة بلا أي بأس! كان كبيـر الأطباء يحاول أن يأتي بأسباب لإفاقتها، وأنا طبيب أعلم أنّه لا يقول الحق!

دخل إلى المستشـفى بإلحاده، وخرج منها بإيمانه! ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٥].





# الحكيم

من العبارات الشهيرة التي أطلقها
عالم الرياضيات الملحد «أينشتاين»
بعد أن تأمّل الكون سنوات عديدة،
فأذهله إحكام خلقه، وعجيب صنعه،
فقال في خضوع لرب هذا الكون:
«الله لا يلعب النرد»!

# الحكيـم

الحكمة هي وضع الأمر في موضعه، والحكيم هو الذي يفعل ذلك! والحكمة مـن صفاته ﷻ، والحكيم من أسـمائه الحسـنى، فهـو ذو حكمـة بالغـة، تظهر أسـرارُها في كثيـر من شـؤون خلقه وأمـره، ويغمُـض منهـا الكثيـر أيضًـا، ويختـص سـبحانه عبـاده المتفكرين بغوامض حكمته فيزيد يقينهم به، وحبّهم وإجلالهم له.

وهذه سياحة إيمانيّة في اسم الله الحكيم، ومحاولة لاستجلاء آثار هذا الاسم العظيم في مخلوقاته، وأوامره، وإراداته ﷻ.

## وفي أنفسكم

جمعني مجلس مع أحدهم قبل أكثر من ثلاثين سـنة وأنا بعد صغير، وما زلت أذكر لفتة إيمانيّة فريدة قالها ذلك الموفّق نقلًا عن داعية في أحد البلدان جزاهما الله خيرًا، فقد تحدّث عن شـيء من حكم الله في خلقه انطلاقًا من توجيه الحق سبحانه لعباده في قوله: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريـات: ٢١] وذكَـر شـيئًا مـن عجيب خلق الله في يد الإنسـان، ثم لفت نظرَنا إلى أنّ نوعيّة الجلد الذي

يكسـو أعلى اليـد يميل إلـى النعومـة والطـراوة، وأن الجلد الذي يغطّي باطن الكف يميل إلى الشـدّة والغلظة.. ثم أخذ يحدثنا عن شـيء من حكمة ذلك وقال: لو انعكس الجلد فكان الأعلى أسفل لصعـب علينـا الإمسـاك بالأشـياء؛ لأن رقـة نـوع الجلـد الأعلـى لا تتحمّـل حـرارة بعض الأجسـام، ونعومتـه لن نتمكّـن معها من الإمساك ببعض الأشياء! ولو كان الأسفل أعلى لما تمكّنا من قبض أيدينا لاشتداد الجلد وقوّته!

فهـذه لفتة بسـيطة في شـيء نـراه مئـات المـرّات فـي اليوم، ولا نكاد نلحظ حكمة الله فيه، فسبحان الخلّاق العليم.

### الـمـرآة

يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].. فالحكمة البالغة تتجلّـى وتتمظهر في هذيـن الركنين العظيمـيـن: الخلق، والأمر..

فانظـر إلـى مخلوقاته، ثـم تأمّـل أوامره وتشـريعاته.. سـتقف مذهولًا أمام حكمته وعظمته وكبريائه..

يمكننـي بالعـودة لبعـض المراجع التـي تتحدّث عن أسـرار المخلوقـات، أن أتحـدّث عـن الخليّـة وعجائبهـا فـي أجسـام المخلوقـات، والـذرّة وغرائبها فـي حالات المـواد، ولكن دعني

عزيـزي القـارئ آتي بما تـراه وأنت واقـف أمام المـرآة كل يوم، وما تمرّ عليه في حياتك المنظورة، ولا تحتاج في معرفته لمختبر ولا لمجهر!

حدّثني عن أذنيك! لماذا هي بارزة هكـذا؟ لماذا لم يجعلهما الله ثقبين في جانبي الرأس؟

ولتعرف شيئًا من حكمته تعالى في خلق الأذن بهذه الكيفية ينبغي أن تكون مررت بتجربة التهـاب الأذن نتيجة دخول الماء إليهـا، وآلامهـا الشـديدة! عنـد ذلـك سـتعلم أنّ الله أراد بهـذا التكويـن الحكيم أن يمنـع دخول المـاء إلى طبلـة أذنك، وإلى التجويف الداخلي لقناتك السـمعيّة حتى لا تبيت بآلام شـديدة بعد كل استحمام!

إن الذي خلقك حكيم، ولن تجد مِفْصلًا أو عضوًا أو تكوينًا في جسـدك ليس له فائدة، وإن جهلت شـيئًا، فإن العلم في الغد سيخبرك بحكمته، يقول تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

الأنف نتوء مكوّن من جزأين؛ أعلاهما قاس وأسـفلهما مرن، ولك أن تتخيّل لو أنّ أنفك كان مرنًا من أعلى كيف كنت ستختنق

من التصاق جوانبه في بعض الحالات! ولو كان قاسيًا من الأسفل كيف كنت ستجد صعوبة في الاستنشاق والاستنثار مثلًا..

ثم تأمّل في حاجبيك، وانظر كم يحجبان عن عينيك من الماء الهاطل، والسخام المنتشر؟ قل مثل ذلك وأدق في أهداب عينيك، وأضعاف ذلك في أجفانك! لقد اقتضت حكمته سبحانه أن يحيط هذا الجهاز الحسّاس بثلاثة حرّاس يحافظون على نقائه وسلامته!

الـذي عليـك حتـى تـدرك حكمته هـو أن تتأمّـل، فقـط تأمّل مثـارات الحكمة في جسـدك الذي هو قـارّة من عجائـب الخلق، ومبتدعات التصوير!

**وتزعـم أنّك جـرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبرُ**

### والأمــــر

وكمـا تجلّـت حكمتـه جلّ وعـلا في خلقـه، فكذلـك تتجلّى وتتضح في أمره، فلم يأمر سبحانه إلا بما يطابق مقتضى العبوديّة، ويتضمّن مصالح العباد، ويستلزم سعادة الدنيا والآخرة..

فلـو تأمّلـت أمـره سـبحانه بالصلـوات؛ لصعـب عليـك ذلك التأمّل، لانثيال الحكم، وانهيال الأسرار..

فإذا نظرت في عـدد الصلوات فهي خمـس صلوات، فلم تـكـن أكثر مـن ذلـك فيصعـب أداؤها علـى العبيد، ولا أقـل

من ذلك فيبهت معنى العبوديّة في قلب العبد وهي المقصد الأوحد لخلقهم!

وإذا تأمّلت في كيفية الصلاة، ومدى روحانيّة حركاتها، وإيمانيّة أذكارها، سترى الجمال وقد غمر الحكمة، والحكمة وقد توشّحت بالجمال والجلال والعظمة!

وانتقل من الصلاة إلى الصوم لتذهلك الحكم! فهذا جوع يذكرك بالفقير ومسكنته، وخواء يصرفك عن الدنيا وبهرجها، وامتثال دقيق يوقظ في نفسك معنى العبوديّة!

ثم تأمّل مناسك الحج، لترى خطوات تسير وفق مرادات الله، فتذكر الناس بأنّهم مربوبون لإله عظيم حكيم خبير.

فحكمته التي في خلقه توازيها حكمته التي في أمره وتشريعه، فلا شيء في الكون إلا وفيه شيء من حكمة خالقه وموجده ومشرّعه.

## حظ الأنثيين

اعترض معترض على مسألة من مسائل قسمة التركات، وهي أنّه إذا اجتمع في الورثة أبناء وبنات، أو إخوة وأخوات، فتكون القسمة بينهم ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]! فظنّ ذلك المعترض أنّ في مثل هذا التشريع العظيم بخسًا لحق الأنثى!

فردّ عليه أهل العلم بما أسكته وبكّته!

فإن الذكر وإن أخذ الضعف هنا، فإنّه يؤمر بالنفقة هناك! أما الأنثى فتأخذ النصف ثم لا تؤمر بنفقة! فمالها لها، وماله له ولغيره! فهنا وجه من أوجه الحكمة البالغة!

ثم إن من حكمته وهو الرب العظيم أن يجعل شيئًا من العَوَص والغموض يطرأ على بعض تشريعاته الحكيمة، فيتضمّن ذلك التشريع نوعًا من الاختبار للعباد، فيظهر المؤمن من المنافق، والمسلّم من المتشكك، والخاضع من النافر! فليست كل تشريعاته ظاهرة الحكمة للجميع، حتى يتفاوت بها العباد، وتختلف رتبهم ما بين الإسلام والإيمان والإحسان.. بل وما بين الكفر والفسوق والعصيان.. ولله الحكمة الباهرة في كل ما يخلق ويأمر!

ومن أسرار هذا الخفاء في بعض التشريعات أن يكون ذلك ابتلاء لأهل العلم، حتى يجتهدوا ويبحثوا وينقّبوا عن شيء من حكمته سبحانه، فيكون ذلك جهادًا لهم، يزكو به علمُهم، ويُثبّتون به القلوب الضعيفة، وينالون الرتب الشريفة.

## حكمة الباري

وكبرت كلمة تخرج من أحد الشعراء إذ قال معترضًا على حكم قطع يد السارق:

يد بألـف مئين عَسْـجَد وُدِيَتْ     ما بالها قطعت في ربـع دينار!
تناقض ما لنا إلا السكوت له     وأن نعـوذ بمولانا مـن النار..

يقول: كيف يصح أن تقطع يد إنسان بسبب سرقة ما قيمته ربع دينار، مع أن ذات اليد ديتها مئة ألف من الذهب!

وهنا يتخايل الشيطان وهو ينسج شبهاته ويلقي بها في أفواه أتباعه وحزبه!

فردّ عليه عالم جهبذ فقال:

عندما كانت أمينة، كانت ثمينة! فلمّا خانت، هانت!

ونَقَض أبياتَه أبو عبد الوهاب المالكي عليه رحمة الله، فقال:

لا تقدحنّ بنود الشرع عن شُبَهٍ     شـعائرُ الدين لا تُقدح بأشعارِ
عزُّ الأمانة أغلاهـا، وأرخصها     ذلُّ الخيانة، فافهم حكمة الباري

### الله لا يلعب

مـن العبـارات الشـهيرة التـي أطلقهـا عالـم الرياضيـات الملحـد «أينشـتاين» بعد أن تأمّل الكون سـنوات عديدة، فأذهلـه إحكام خلقه، وعجيب صنعه، فقال في خضوع لرب هذا الكون: «الله لا يلعب النرد»! وهو من أشـهر الملحديـن، إلا أنّ نواميس الكون المحكمـة، وقوانينه البالغة الدقّة والتي يعرف أينشتاين الكثير عنها جعلته يقول تلك العبارة.

وقد جاء القرآن الكريم بمعنى مقارب لهذا المعنى حينما قال الحق سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٦] القضيّة ليست لعبًا ولهوًا، لم يخلق الله الإنسان، والمجموعة الشمسيّة، والشعرى اليمانيّة، ومجرّة درب التبانة، وخلايا الدم، والإلكترون، والبحار، والأشجار، والبراكين، والضوء والصوت، والمشاعر والأحاسيس ليلعب سبحانه! بل خلق كل ذلك وغيره وفق حكمة بالغة، ولأجل مقصد عظيم..

## أخبرني

ومما يتجلّى فيه اسم الحكيم، تباعد ما بين دعاء العبد وإجابة الربّ، فهو القدير على أن يُسرع بالإجابة ويتحقق المطلوب، فلا تُنزل يديك إلا والإجابة ماثلة أمامك، ولكنّ حكمته اقتضت ألّا يحدث ذلك في كثير من الدعوات!

تريد أن أحدّثك عن شيء من حكمة ذلك الأمر؟ تعال بنا إلى ذلك العبد الفقير الذي يرفع يديه عقب كل صلاة بأن يوسّع الله عليه في رزقه.. فلم تأته تلك السعة بعد! تعال لنحاول استكناه الحكمة في ذلك:

أخبرني عن ذلك المبتهل في محراب العبوديّة يدعو الله قائمًا وقاعدًا.. إذا علمت أنّ الله تعالى أحبّ منه تلك الدعوات، فقد

خلق الخلق لعبادته، ثـم علمت أن الدعاء من أهـم العبادات التي ينبغـي ألا تخلو منها حيـاة العبد، سـتعلم أنّ وجـود حالة تقتضي دعاء والتجاء أمر محبوب إلى الله؛ لأن عبده في تلك الحالة يكون قد تلبّس بأسمال العبوديّة، فاستحقّ بها هبات الربوبيّة..

وقد قال أحدهم: «لا تحزن إذا أرهقتك الهموم، وضاقت بك الدنيا بما رحبت، فربما أحبّ الله أن يسمع صوتك وأنت تدعوه»..

فما هو الفقر أمام زخّات الرحمة والرضـا التي تهبّ عليه من كل جانب؟ مع ما ينتظره من أجر الآخرة الأعظم؟ هذا شيء..

ثم أخبرني عن فقير طلب من الله الغنى، فأعطاه إيّاه، وقد علم الله أنّ ذلك الغنى سـيُرْديه في مهاوي الانتكاسـة! علم أنّه سيطغى ويتكبّـر! ثم إنّـه بعلمه علـم أنّ المتبقي من حياته سُـنيّات يسـيرة! خمـس أو عشـر أو قريـب منهـا! فما قيمـة «مليـون» يضـاف إلى حسابه، يطغيه ويلهيه ويشقيه.. ثم تنتهي حياته وقد ابتعد كثيرًا عن حياض العبوديّة! وخسر الدنيا والآخرة؟ وهذا شيء ثان..

ثم أخبرني أيضًا عن فقير يطلب من الله الغنى، وقد علم الله أن الغنى له في هذا اليوم مهلكة! وأنّه لا يصلحه اليوم إلا الفقر، وأن جائحـة ما سـتكون بانتظـار ذلـك الغنـى السـريع، وأنّ أصلـح ما يصلحه أن يتأجل ذلك الغنى شـيئًا من الوقـت، حتى يأتيه وقد

استقرّت تلك الدوامة، وانقضى زمن تلك الجائحة، فيكون المال حينئذ أنفع ما يكون، وأبقى ما يكون.. وهذا شيء ثالث..

وهناك رابع وخامس.. وعاشر.. ولا تكِلُّ من تأمُّل حكمتِه إلا وتأتي رحمته وقدرته وعظمته.. وإن ظهرت مع الفقير حكمته، فهي كذلك مع المريض، والمكروب، والمحتاج.. فلا تظنّ بالحكيم تخلّف حكمته، ولا بالرحيم قصور رحمته.

وأختم بمقولة قالها أحد الأدباء الذين خلطوا في كتبهم الحق مع الباطل، وإن كانت عبارته هذه من الحق الذي لا مرية فيه: «ولله ﷻ أن يمتحن عباده بما شاء من التخفيف والتثقيل، ويبلو أخبارهم كيف أحب من المحبوب والمكروه. ولكل زمان ضرب من المصلحة ونوع من المحنة، وشكل من العبادة».

## تقديرًا

ومن حكمته سبحانه أن قدّر شؤون خلقه تقديرًا، وحدّ حدودًا لا يمكن لمخلوقاته تجاوزها.. فسبحان ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]..

وسيطول بنا المقام لو ذهبنا نستعرض تلك التقديرات العجيبة، ولكن سنقف هنيهة مع تقديره سبحانه لأمر حاسّة السمع!

فللسمع كما هو معروف عتبتان دنيا وعليا، فالعتبة الدنيا تضمن لك عدم سماع الأصوات المنخفضة جدًّا، والعليا تضمن لك عدم سماع الأصوات المرتفعة جدًّا.

تخيّل معي لو وجدت لديك القدرة على سماع هذين النوعين من الأصوات، بمعنى لو زادت قليلًا عتبتا السمع، فصرت تسمع المزيد من الأصوات المرتفعة، والمزيد من الأصوات المنخفضة!

صدقني لن تغدو حياتك أجمل!

ستحتاج إلى كميّة كبيرة من القطن حتى تحشو بها أذنيك، لتخفف من تلك الضوضاء الفظيعة التي لا تسكت أبدًا.

ستغدو حياتك كحياة أولئك الرجال الذين يعملون في المصانع الكبيرة، والذين تزعجهم المكائن بأزيزها، والحدائد بصريرها، وجلجلة احتكاك البكرات الكبيرة.

لن تستطيع أن تنام بهدوء، بل ستوقظك أصوات الرعود التي تصرخ الآن في مدينة تبعد عنك مئات الأميال!

بل حتى دبيب النمل، ورفرفة أجنحة البعوضة في الغرفة المجاورة ستجعل لحظات الهدوء لا وجود لها في حياتك..

ليست كل المخلوقات تسمع بدرجة واحدة، فإن الكثير من الحيوانات تسمع الزلازل قبل أن تصل إليها بأيام! بل وتسمع

صراخ الموتى في قبورهم، لذلك تجدها تنفر إذا ما اقتربت من مقبرة ما لهول ما تسمع.. إذن لا تظن أن حجم ما تسمعه الآن هو شيء طبيعي لا يمكن تجاوزه، لا، بل رحمة الله هي التي جعلته بهذه الكيفية.

إن انحصار حاسة سمعك في حدود معيّنة نعمة عظمى، جعلتها الغفلة وكأنها شيء طبيعي لا يستحق التأمل، فضلًا عن الحمد لمانح هذه الحياة، بهذه الطريقة المتقنة، فلك الحمد يا من أحكمت صنع خلقك، وقدرت ذلك تقديرًا.

### الزهايمر

وعادة ما يلفت الله تعالى خلقه في كتابه إلى ضعفهم ليعلموا قوّته، وإلى عجزهم ليعلموا قدرته، وإلى محدودية تفكيرهم ليعلموا حكمته..

كنت جالسًا في أحد المطاعم أنتظر طلبي أن ينتهي، فإذا بشاب مفتول العضلات يدخل وبيده سيجارة، وهو يتحدث مع نفسه، كان منظره ملفتًا، دخل إلى ما وراء الحاجز في المطعم، ثم رفع صوته وهو يحاول إقناع شخص يقف أمامه لا نراه، وكان متفاعلًا جدًّا في ذلك الحوار الغريب، تأكدت عندها أنه فاقد العقل، عندما خرج من المطعم وهو لم يزل يتحدث مع ذلك

الشخص الذي لا نراه، سألت عمّال المطعم عنه، فقالوا بحزن: كان قبل شهرين معافى، لا يشتكي من شيء، ثم جُنّ فجأة!

هذا هو الإنسان! ثم تراه يتساءل عن حكمة الله في ذلك الأمر؟ وعن سرّ تشريعه لذلك الحُكم؟

لا يملك عقله، ويتساءل عن حكمة الخالق الحكيم!

إحدى قريباتي كبيرة في السن، أصيبت بالزهايمر فيما يبدو، كانت تحبني حبًّا كبيرًا، دخلت للسلام عليها، فلم تهش لي كما كانت من قبل، نظرَت إلى أحد الحضور ثم قالت متسائلة: من هذا؟ شعرتُ بفتور يغزو عضلاتي، وبغصّة البكاء. مسكين أنت أيها الإنسان!

لقيت أحد الزملاء بعد انقطاع أكثر من عشر سنوات، لقيته وقد زاد وزنه كثيرًا، سألته عن سبب تلك الزيادة المفرطة في الوزن، فقال: إن الحبوب التي يتناولها هي السبب، عقدت بين حاجبيّ متسائلًا عن تلك الحبوب، فقال لي بصوت بئيس: أنا مصاب بانفصام في الشخصية!

إن العقل البشري حسّاس للغاية، فهو وإن كان يساعد على تصور العالم، إلا أن ضمورًا بسيطًا، أو اختلالًا ما يصيبه، يجعل الإنسان لا يتصور العالم كما هو، بل يصنع له خيالات خاصة

### أفي الله شك؟

كنت في وادي «ذي غزال» بالطائف قبل خمس وعشرين سنة، وأصابني الأرق ليلًا، فخرجت من الخيمة التي كنت مستلقيًا فيها، وتفاجأت بمسرح عظيم في سقف الكون مليء بالحياة!

أخذت أرقب النجوم المضيئة، والشهب التي تتحرّك بسرعة رهيبة! لقد شعرت في تلك الليلة أنّ الله أعظم من أن يكون غامضًا، أو أن يخفى، إنّ ربًّا خلق هذه اللوحة البديعة، لا يريد حتمًا أن يكون غامضًا يُستدل على وجوده بأدلّة لا يفهمها إلا الأذكياء جدًّا!

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]؟ هكذا يقول تعالى عن نفسه؟ هل هناك شكوك تساور عقلًا ما حول «الله»؟

سئل أعرابي: بم عرفت ربّك؟ فأجاب بفطرته: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدل على السميع البصير؟

### الجثّة

كيف يكون غامض الوجود من إذا دعوته أجابك؟ وإذا دهمك خطب تجد ضرورة ما في نفسك تتجه إلى العلوّ؟ وإذا ألمّ بك مرض جعلت آهاتك وتضرّعاتك تطرق باب سماواته في الليل؟

بالعالم، فيتعاطى مع العالم ومع الناس باعتبار ما يتصوره، فيسمي زيدًا عمرًا، ويرى السيارة جملًا، ويضحك إن رأى شيئًا يدعو للبكاء! ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١]!

## مسكين!

ومما يصيب هذا العقل البشري الضعيف ما يسمى بالرهاب، وله أشكال، فبعض المصابين بهذا المرض يختنق اختناقًا حقيقيًا في الظلام؟ وبعضهم إن أغلق عليه مصعد في مبنى يشعر بأن الدنيا قد انطبقت عليه، والبعض الآخر إن أجبرته الظروف أن يتحدث في حضور آخرين، يصيبه دوار، وتعرّق، واحمرار في الوجه، ويهم بالسقوط! ما هذا العقل الضعيف؟ الذي يتصور أشياء غير موجودة، ويشعر بمشاعر ليس لها أي سبب، إنه الإنسان ذو العقل الجبار.

أما الوسواس فحدث عنه ولا حرج، فهو من الأمراض التي تصيب هذا العقل الإنساني، ألف الإمام ابن الجوزي سِفْرًا كبيرًا سمّاه: تلبيس إبليس، فأتى بالعجائب! هناك من يستغرق الساعات في الاغتسال! والبعض يعيد صلاته مرات عديدة.

أيقظت زميلي في السكن الجامعي لصلاة الفجر فدخل دورة المياه، وخرجت أنا إلى المسجد مع الأذان تقريبًا، فصليت سنة

الفجر، وقرأت ما تيسر من القرآن، ثم أقيمت الصلاة بعد وقت طويل، فصلينا صلاة مطمئنة، ثم بعد الصلاة بقيت في المسجد إلى أن قاربت الشمس على الشروق، ولمّا عدت إلى غرفتي، وجدت صاحبي ما زال يتوضأ، طرقت عليه الباب، وقد حسبته قد مات، فخرج مذهولًا، وسألني: هل انتهيتم من الصلاة؟ لم يشعر بالوقت، وقد مكث ساعة أو تزيد! مسكين هذا الإنسان.

إحدى قريباتي اشتكت لي من الوسوسة التي تصيبها في الصلاة، ظننت أنها تكرر التكبير، أو تعيد الفاتحة مرة أو مرتين، فقالت لي في حزن: لا، أصبحت أكرر الصلاة بكاملها أربع أو خمس مرات!

والشك حالة تصيب العقل البشري، تجعله يجعل من تصرفات مبعثرة، مقدمات منطقية لنتيجة حتمية، فيتصل بزوجته مثلًا فيجعل من انشغال الخط سببًا مقنعًا في اتهامها بأنها على علاقة ما برجل! والشك يجعل نظر اثنين إلينا وهما يتهامسان مقدمة نتيقن من خلالها بأنهما يحيكان مؤامرة ما ضدنا!

وإن توقفنا لحظة إزاء أرقى صور الإدراك البشري، وهو اليقين، ما هو اليقين؟ إنه شكل بدائي للمعرفة الحقة، فأين هو من حق اليقين؟ وأين حق اليقين من عين اليقين؟ إن الحقيقة ـ كما يقول أحدهم ـ سداسية الشكل، فإدراكنا لجانب منها

ـ باليقين ـ لا ينفي وجود خمسة جوانب ـ أو أكثر ـ مجهولة لنا كليًّا، فلا ينبغي أن نفرح بجزء من الحقيقة، في حين أن أجزاء من نفس الحقيقة قد يكون بعضها أهم مما توصلنا إليه لم تزل غائبة عن إدراكنا!

عقولنا هذه التي يعتريها ما يعتريها مما ذكرناه وما لم نذكره لا تصلح أن تتساءل عن الحكمة في تشريع ما، أو في خلق ما.. فهي أقل من أن تدرك الأمور التي تجري حولها إدراكًا موضوعيًّا مجرّدًا، حتى تنتقل إلى مسألة الحكمة والغاية من تلك الأمور!

وبعد، هل آن لنا أن نُسجد أرواحنا للحكيم الخبير، وأنْ نعلم أنّ حكمته أعظم من تساؤلاتنا، وأنّه لا يقدّر إلا الأصلح، ولا يُشرّع إلا الأحسن، ولا يقضي إلا بما هو خير؟






# العليم

يطلب منّي أن أفتح أي صفحة عشوائيّة منه!
ثم أقرأ عن أولئك الذين غبرت على موتهم سنوات،
ونسيت الحياة ملامحهم، ثم يطلب مني أن أتوقف
لأتأمّل كيف أن الله يعلم كل شيء عن أولئك!

# العليـم

علمه ﷻ ورد في كتابه مئات المرّات! سواء بصيغة الاسم أو الفعل من العليم أو الخبير أو السـميع أو البصير أو الشـهيد، وهو معنى يريد الله تعالى من خلقه أن يؤمنوا به، وأن يتفكّروا فيه، وأن ينثروا هالاته في أقوالهم وأعمالهم واعتقاداتهم؛ لأنّ مسيرهم إليه سـبحانه لن يسـتقيم إلا وفق إيمان جازم بهذا العلم المحيط بكل شيء في الوجود!

ومُطَمْئِنٌ جدًّا الحديث عن علـم الله تعالى، ومخيف في ذات الوقت، ومحفّز للعمل أيضًا! ولا قوام لحياة القلب إلا باسـتظلاله بمعاني وهدايات هذا الاسم العظيم.

نؤمن أن الله يعلم كلّ شـيء، ثم لا نتأمّل في كلمة «كل شيء» التي لو أعطيناها دقائق تأمّلية لأُصبنا بالذهول!

فلنأخـذ اسمًا عشـوائـيًا لنتسلل إليـه عـبـر اســم «العليم» ونـرى كيف سـيذهلنا علـم العليـم سـبحانه، وليكـن «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه..

ربنا سبحانه يعلم بأنّه سيخلق رجلًا اسمه عمر بن الخطاب وما زال آدم في طينته! ويعلم قبل ولادته بآلاف السنين اسمه وسنة ولادته بل ولحظة ولادته وموته، ونسبه إلى آدم، وعدد خلايا جسمه، وكل رؤيا وحلم سيراه في منامه، ومتى سيسلم، وعدد أنفاسه في هذه الحياة، وما هي المشاهد التي سيراها في حياته، وكم كلمة ستتسلل إلى أذنه، وكم حرف سيتلفظ به، وكم خطوة سيخطوها في الحياة، ويعلم أولاده وأولادهم وذراريَّهم إلى يوم القيامة، ويعلم كل شيء عنهم.. إلخ.

ويعلم مثل الذي يعلمه عن عمر عن كل إنسان في الوجود، بل عن كل شيء في الوجود! لأنّه العليم، الخبير، الذي لا تخفى عليه خافية!

### لقد سمع

كانت عائشة رضي الله عنها في طرف البيت إذ جاءت خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها إلى النبي ﷺ تشكو زوجها! فكان الكلام يخفى على عائشة، تسمع شيئًا ويخفى عليها شيء!

وما هو إلا زمن يسير حتى أنزل الله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١] فكانت أمُّنا عائشة رضي الله عنها تقول بعد ذلك: «الحمد لله الذي وسِع سمعه الأصوات!»[1].

ذُعْرٌ ما أصيبت به عائشة! إذ كيف لصوت بينها وبينه أمتار لم تسمعه، ثم يسمعه الله من فوق سبع سماوات! إيمانيًّا المسألة سهلة، وكلنا نعلن إيماننا بها! ولكن عندما تحدث تفاصيلها بين يديك وأنت تشاهد ذلك لا يمكنك إلا أن تُدهش وتخاف وتعلم أنّك تحت علم الله المحيط بكل همساتك وأفكارك وخيالاتك!

### إلا يعلمها

إذا حلّ عليك فصل الخريف؛ برياحه الساخنة، وبأجوائه الجافّة؛ فسِرْ بقدميك، أو بخيالك في إحدى الغابات ذات الأشجار المتلاحمة، وملايين الأوراق الصفراء تقرر التخلّي عن أغصانها، لتسقط على الأرض مخلّفة خارطة خريفيّة لا حدود لها! في تلك الأثناء رتّل قول الحق سبحانه: ﴿ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا ﴾ [الأنعام: ٥٩]!

يعلمها..

قال ابن المُسَيَّب: بينما رجل واقف بالليل في شجر كثير وقد عصفت الريح فوقع في نفس الرجل: أترى الله يعلم ما يسقط من

(١) صحيح البخاري (٩/ ١١٧).

هذا الورق؟ فنودي من جانب الغيضة بصوت عظيم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤][١].

كل هذا العدد الهائل: عند ربّك سبحانه وتعالى عدده!

ولكن انتظر، هل قال تعالى: يعلم عددها؟ أم قال: «يعلمها»؟

ليس فقط العدد! إنّه يعلم كل ما يتّصل بها من معلومات!

يعلم حجمها ووزنها، يعلم عدد العروق التي فيها وكيفية تفرّعاتها، يعلم مذاقها وما تحتويه من مواد، يعلم كونها ذات عنق أم لاطئة أم محيطية، يعلم اللحظة التي سقطت فيها، بل وقبل ذلك اللحظة التي وُجدت فيها!

يعلمها..

ثم يقول الحق: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٥٩]! أي إلا يعلمها كذلك!

ثم يقول جامعًا كل ما نتخيل وما لا نقدر على تخيّله: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وهل الكون بكل مجراته وذراته إلا رطب أو يابس؟ كل شيء، نعم كل شيء يعلمه سبحانه!

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٢١٤).

## السلف

كان علم الله تعالى هو أكبر ما يسيطر على خيالات السلف الصالح، ويرتّب نظرتهم إلى الحياة، ويشجعهم على العمل للآخرة، والخوف الذي يقترب من الهلع من الله تعالى!

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بغير ما يعلم الله من قلبه شانه الله عز وجل»[1].

إنك تعبد ربًّا يعلم ما في القلوب، ولا بد والحالة هذه أن تحذره، وتضاعف فكرة مراقبته في نفسك؛ لأنّ ربًّا يحيط بخفايا نفسك لا تصلح معه الأعمال التي نشوبها بحظوظ أنفسنا، وبنظرتنا القاصرة لهذه الدنيا الفانية!

ثم إنّ إيمانك بعلمه سبحانه ييسّر عليك دعاءه، والدعاء أرقى درجات العبادة! وقد جاء في الحديث: «**الدعاء هو العبادة!**» فكيف يمكنك أن تدعو من لا يعلم بك وأنت تدعوه؟ ولا يعلم بمقدار حاجتك إليه، ولا يعلم بقدر التوحيد الذي انطوى عليه قلبك؟

قال فضيل بن عياض لرجل: «لأعلمنك كلمة هي خير من الدنيا وما فيها: والله لئن علم الله منك إخراج الآدميين

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٥٠).

من قلبك حتى لا يكون في قلبك مكان لغيره؛ لم تسأله شيئًا إلا أعطاك»[1].

فالخطوة الأولى لإحسانك في عبادتك وإخلاصك في دعائك هي أن تعلم أنّ الله يعلم!

## يسير

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ [الحج: ٧٠]، توقف قليلًا، ولا تكمل الآية، وحاول أن تتخيّل ما الذي يعلمه؟ كل شيء تتخيّله سيكون أقل مما جاء في الآية الكريمة، لنكمل قراءتها:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾! كل شيء في السماء والأرض!

أشياء وأعمال وخيالات وأفكار وماض وحاضر ومستقبل! كل شيء في السماء والأرض يعلمه! كل خليّة في جسدك يعلم كل شيء عنها! كل ذرة في الكون يعلم تاريخها وسيرتها الذاتية بالتفصيل!

أرأيت هذا القدر العظيم من العلم، يقول تعالى عنه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩]! لم يكلفه شيئًا! لأنه

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٤٣٠).

العليـم، الذي لا ينتـج علمه عـن تعلّم وإنّمـا هو عليـم بذاته، لا يمكن لمعلومة أن توجد دون أن يكون لديه علمها قبل وأثناء وبعـد وجودهـا! حتـى علامـة التعجّب هـذه (!) علم سـبحانه اللحظة التي ستقع عينك عليها!

## تاريخ ابن كثير

لي صديق متأمّـل، لا أحصي المـرّات التي يحدثنـي فيها عن اسـم الله العليم، هناك شـيء غريب يشـعر بـه صاحبي حيـال هذا الاسم العظيم!

فـي إحدى تأمّلاتـه يحدثني عـن تاريـخ البدايـة والنهاية لابن كثير، ويطلـب منّي أن أفتح أي صفحة عشـوائيّة منـه! ثم أقرأ عن أولئك الذين غبرت على موتهم سنوات، ونسيت الحياة ملامحهم، ثم يطلب مني أن أتوقف لأتأمّل كيف أن الله يعلم كل شيء عنهم!

فعلم الله لتفاصيلهم لا يقـل عن علمه بتفاصيلنا نحن الأحياء، وبملامحنا وأصواتنا وأحاديثنا وذهابنا وإيابنا..

أولئك الذيـن كانوا ضمـن الجيـوش الفاتحة، أولئـك الذين ماتوا أيام الحصار، ولـم يتمكن المؤرخون من إحصائهم ولا من تدويـن أسـمائهم، كل شـيء عنهـم معلوم ومسـجّل لـدى الذي لا تخفى عليه خافية!

ومرة من المرات فتح لي صديقي المتأمّل صفحة من إحدى برامج الخرائط، ثمّ قربها، حتى ظهرت لنا سيارة في إحدى الشوارع العامة، فإذا به يسألني: هل أعلم شيئًا عن قائدها؟ كانت الإجابة بالنفي، فقال لي: لكن الله يعلم اسمه واسم أبيه وموقع بيته ومعاناته وعدد أبنائه وأسماء أقاربه ومقر عمله... وأخذ يتلو التفاصيل المذهلة عن علم الله بهذا الشخص المجهول لنا!

### هناك طمأنينة

نعم هناك طمأنينة تعم كيان المؤمن؛ حين يتيقّن أن ربّه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]..

عندما يعلم ربّك ووليّك وحاميك والمدافع عنك كل شيء في وجودك! فممن تخاف؟ وعلى ماذا تحزنِ؟ ولماذا تهتم؟ فكل قلق يساورك يعلم أسباب وجوده، وطرق ذهابه! وكل حزن ينكّد عليك يعلم حجم آهاته، وقهر نبضاته! وكل مرض أقضّ مضجعك يعلم سرّ دائه، ونوع دوائه..

مريح جدًّا ومطمئن جدًّا إيمانك بعلم ربّك..

إنّك لن تحتاج في دعائك له أن تسرد كل التفاصيل، يكفيك أن تقول: يا ربّ ارفع عنّي ما أصابني! لأنّه لا أحد أعلم منه بما أصابك، ولا بكيف يرتفع عنك هذا المصاب!

مؤنس جدًّا أن تركن إلى ربّ يسمع دعواتك في الليل، ويرى خطواتك بالنهار، ولا تخفى عليه منك خافية، ولا مما يحيط بك، ولا مما يدبَّر لك، ولا مما يُراد بك!

ومما يعزز شعور الطمأنينة عند رؤيتك لما تظنه من منغصات الحياة ومكدراتها! ثقتك أنّها إنما وقعت بعلمه الكامل، وحكمته التامّة، يقول تعالى في ثلاثة عشر موضعًا من كتابه: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ١٨] حتى تملأ قلبك بمعناها، وأن كل شيء يحدث إنما يحدث بعلم لا تفوته الخفايا، وحكمة لا تدرك غورَها البرايا!

خبِّرني عن شعورك وأنت تقرأ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤] فعلمه بكل شيء يوازي قدرته على كل شيء.

افتح خانة في قلبك واستعرض أصعب ما يمكنك تخيّله ثم اقرأ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ ﴾ ليس هناك شيء تريد أن تكتبه في قائمة المستحيلات.. إلا وهناك علم وقدرة يمكنهما جعله في خانة الممكنات!

## وهناك ذعر

وإذا علمت أنّه سبحانه يعلم كل شيء، ومن هذه الأشياء التي يعلمها أفعالك القاتمة، ومغامراتك الصبيانية، وخيالاتك النزقة!

تلك الشوائب التي لا يفرحك أن يطّلع عليها الله! بل يخيفك أن يطّلع عليها الله! بل يرعبك أن يراها عليك الله..

فتأتي آيات الكتاب الكريم لتنزع ذلك الرعب وتخبرك أنّه بقدر علمه يكون حلمه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١] فهو وإن كانت خطراتك أيسر ما يعلمه ويحيط به، إلا أنّه حليم، فلا يبادرك بالعقوبة، ولا يسارع سبحانه بالانتقام! بل يحلم ويرحم ويغفر ويتجاوز..

ما أجمل وأعظم الرحمة والمغفرة التي يختم بها بيان علمه بكل شيء: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢] إنها الراحة التي لا تشبهها راحة! والهدوء الذي لا يقاربه هدوء..

بل إنّه يحذرنا من علمه، ثم يطمئننا بحلمه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

كم من ذنب ندّ عنا، ثم نحن نتلفّت ونترقب العقوبة، فإذا بالرحمة تدهَمُنا، وتغيّر مسار حياتنا!

إن الأقل من أعمالنا وتجاوزاتنا هو ما يهذبه الله بالعقوبة! أما الأكثر والأوفر فيطفئه برحمته وحلمه وعفوه.. لأنّه العليم

الحليم! والغفـور الرحيم! أليس سـبحانه القائل: ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]؟

ما أجمل الحلم بعد العلم، لأن علم الإنسـان ببواطن الناس يسـتغضبه ويُحنقـه، أمـا علـم الله سـبحانه فلا يَنقُص مـن حلمه ورحمته شيئًا.

## قاع البحر

وبعـد أن فتحنـا نافذة على شـيء مـن علـم الله، لنفتـح نافذة أخرى على شـيء من جهل الإنسـان، لندرك كيـف أنّ ربّنا عليم، خبير، سميع بصير!

يقول تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ [الأعـراف: ١٨٨]، ولكن الإنسـان الضعيف لا يعلـم الغيب، لهذا فهو لا يستكثر من الخير! ويمسه السوء ليل نهار..

ذلك الذي تعثـر بصخرة مـا، لـو كان يعلم أن تلـك الصخرة ستسبب تعثره، ألن يتفاداها؟

والآخر الذي سـقط فـي حفرة ما، لـو كان يعلـم بوجود تلك الحفرة في طريقه ألن يأخذ حذره؟

لا يعلم الغيب، لذلك هو يسقط ويتعثر، ويخفق!

لو علم الذي وقع في حادث ما، بإمكانية وقوع ذلك الحادث قبل وقوعه بثوان لأمكنه تفاديه، ولكنه لا يعلم شيئًا ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].

لو كان يعلم فرعون أن البحر سينطبق عليه في ذلك اليوم، هل كان سيجازف بحياته هو وجيشه؟ فيموت تحت قاع البحر، والأسماك تشاهده وقد تماهى لون وجهه مع لون تراب البحر الرمادي!

ولو علم قارون أنّ داره سيُخسف بها في صبيحة ذلك اليوم، ألم يكن سيبحث عن دار أخرى يبيت فيها، مع أني على يقين أنه لو صعد إلى أعلى جبل في مصر فسيخسف الله بذلك الجبل، لأن المشكلة ليست في الدار، وإنما في صاحب الدار!

يقول تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ [لقمان: ٣٤] صديقي يحدثني عن والده يرحمه الله أنه سافر لتأدية واجب العزاء، فمات بحادث سيارة وهو في طريقه، لم يكن يدري أنه يقوم بواجب الموت لا بواجب العزاء، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كل مـن قتلوا على وجه الأرض، منذ فجر البشـرية إلى اليوم، لو علموا بأنهم سيقتلون في ذلك اليوم كانوا سيغيرون شيئًا من جدولهم اليومي؟ ولكنهم يجهلون!

**نؤمل آمالًا ونرجو نتاجها وآجالنا مما نرجيه أقربُ**

### الإنسان ذلك المكشوف

الإنسـان بكبريائه وغروره يصدمه القـرآن بأنّ كل شيء فيه مكشـوف، وأنه لا وجود للخفايا والزوايا في حياته! لأنّ ربّه يعلم عنه كل شيء! ويبصر كل شيء، ويسمع كل شيء.. فهو العليم السميع البصير..

هو يعلم سبحانه الآفاق التي تبدو لك من بعيد، والعالم الذي خلفته وراء ظهرك: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [طه: ١١٠]، كل شيء تسير باتجاهه يعلمه قبل أن تقرر أن تسير باتجاهه، يعلم تلك الأمكنة التي ستزورها، والأوجه التي ستلتقيها، ويعلم الأيام التي ستعيشها، والأزمنة التي ما زالت تنتظرك مفاجآتها! كلها بين يديك، أمامك..

ويعلم ما خلفك! ذكرياتك، وطفولتك، وصباك.. وكل مكان وشخص وفكرة وخاطرة باتت من الماضي، وأودعتها صندوق

ذكرياتك! بل ويعلم كيف سيكون ماضيك وحاضرك ومستقبلك لو أنّ تغيُّرًا يسيرًا طرأ عليك!

وهـل في الحيـاة إلا ما هـو أمامـك أو وراءك؟ هـذا معنى الإحاطة!

يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون!

يتمنـى أصحاب الجحيم العودة إلى الدنيا لتغيير مسـارهم، والأوبة عن كفرهم وفجورهـم، فيقول الحق تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾ [الأنعام: ٢٨]! فهو يعلم كيف سيكون حالهم لو أنّه قدّر لهم أن يُردوا إلى الدنيا، سيعودون إلى سابق عهدهم من الكفر والفجور!

ثـم تعـال إلى تلـك الخيـالات التي تطـوف بعقلـك، وتلك الهمسـات التي تبديها بحذر، تلك الفضفضـات التي تظنها بلغت مـن الخفوت قـدرًا لا يمكـن لأذن أن تصـل إليهـا، ولا لجهة أن تدرك فحواها! كلها مكشوفة!: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩]..

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] يقول الإمام القرطبي: «يعني ألا يعلم السر من خلق السر»[١].

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٢١٤).

أرأيت تلك الخارطة التي حوت أيامك وأحلامك، وجعلت صدرك صندوقًا وكِنًّا لها؟ إنها مكشوفة بكل تضاريسها لمن ﴿يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩].

أفصح أو لا تفصح! فليس ما تفصحه إلا جزءًا يسيرًا مما تنطوي عليه نفسك، إن نفسك لتقف بكليّتها أمام علمه مكشوفة مفضوحة: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧]! السر نعلمه، ولكن ما هو الأخفى من السر؟ إنه كما يقول المفسرون: الوساوس! تلك التي لم تبلغ حد الفكرة! ومضات خافتة لا تكاد تظهر! يعلمها سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]!






## الفتــاح

وهذا الإمام المحدّث الذهبي،

رأى أحد العلماء خطّه،

فقال: إن خطّك شبيه بخطوط المحدّثين،

فحبب الله إليه الحديث،

فصار إمام عصره في الحديث!

# الفتــاح

الدنيا حقل عظيـم ممتلـئ بالأقفـال، ممتلئ بخيبـات الأمل، والإحباطات المتوالية، بل إن التوقّعات حول تعسّر الأمور، وتعقّد القضايا من حولك مرتفعة جدًّا.

ولكـنّ الفتّـاح العليم سـبحانه يفتـح مغاليـق الأمـور، ويذلل صعاب الحيـاة، ويجعل المسـتحيل ممكنًا، فبيده سـبحانه مفاتيح الفرج.

فلنطالع سويًّا شـيئًا من معاني هذا الاسـم العظيم، ولنرى كم كانت ستكون الحياة مكتظة بالقلق لولا الفتّاح سبحانه.

### البشـرى

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر: ٢] إذن فالرحمات تُفتح، لتتدفّق علينا، وتملأنا بالحياة!

إذا أردت رحمة خالدة، دائمة، لا تنقطع فاطلبها منه سـبحانه، وتذكّر ﴿ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾.

فقط الذي عليك فعله حيالها أن تُكلِّلها بشكره، فشكرُه سبحانه شرط من شروط بقاء هذه الرحمات والنعم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، إن الشكر لا يضمن بقاء الرحمة فحسب، بل ويتكفّل بزيادتها!

ولكن أسمعت بقانون «البشرى»؟

إن من سنن الله التي ارتضاها، وأرادها أن يبشّرك برحمته قبل أن تصلك، أن ينعش قلبك المفؤود، ونبضك المكدود بنسمات البشرى التي تستيقظ مشاعرك على طرقاتها الخافتة، فيأتيك يقين أن تحقيق الحلم قد بات وشيكًا، وأن ارتفاع الضر قد صار قاب قوسين أو أدنى!

يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨] فهذا تمظهر واضح لهذا القانون!

فهو سبحانه لا يرسل الرحمة وحدها، بل يرسل قبلها البشائر التي تهيئك لتقبّل تلك الرحمات، وتلقّي تلك البركات.

ثم بعد أن تهبّ تلك النسائم، تبدأ الفتوح بالانهيال عليك من كل جانب، وتستغرب كيف حدثت كل هذه الأمور، مع أنك بالأمس القريب كنت قد أقنعت نفسك باستحالة أن يتمّ هذا الأمر!

## فتوحات العلم

ومن أنواع الفتوح التي يمنّ بها الفتّاح على بعض عباده، فتوح العلم، فيفتح سبحانه من العلم، وفي العلم، وللعلم!

وأمّا فتحه من العلم فقد كان ابن تيميّة رحمه الله تعالى تَعْوِص عليه بعض المعاني القرآنيّة، فيقرأ في بعضها مئة تفسير، فلا يهتدي للصواب، فيخرج للبريّة ويمرّغ وجهه في التراب ويبتهل: يا معلّم داود علمني، ويا مفهّم سليمان فهمني.. فتنهال عليه فتوح العارفين، ويهتدي للقول الحق، لذلك فإنّ أثر تلك العطايا الإلهيّة بادية فيما يكتبه هذا الجهبذ عليه رحمات الله تترى.

فهذا كما ترى فتح من العلوم خاص، لم يجده فيما رقمه الأوّلون، ولا فيما سطّره المفسّرون.

وأمّا الفتح الذي في العلم، فقد يكون الرجل منصرفًا لعلم ما، بآلة ضعيفة فيه، فيفتح الله عليه فيه بعد أن يكون مستغلقًا عصيًّا، ومن أشهر الأمثلة لهذا النوع الربيع المرادي رحمه الله فقد قيل: إنّه كان ضعيف التصوّر للمسائل، وإنّ الإمام الشافعي كان يعيد له المسألة كثيرًا حتى يفهمها، وقد قال له مرّة: «يا ربيع، لو قدرت أن أطعمك العلم لأطعمتك إياه»[1] وما تصرّمت السنوات حتى فتح

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤٧٣).

الله عليه في الفقه فبات أشهر فقهاء المذهب الشافعي، بل يُعد المقدّم فيه بشهادة الإمام الشافعي نفسه!

وقد حُدّثت عن بعض جهابذة الحديث في زمننا أنّه كان لا يكاد يستطيع أن يحفظ حديثًا، بل قد كان أضعف أترابه في هذا الباب، فاعتكف في أحد المساجد لا يدعو الله إلا بأن يفتح عليه في العلم، قال: فما قضيت اعتكافي ذلك ودعواتي تلك حتى صرت لا أسمع بحديث إلا وينتقش في ذهني!

أما الفتح للعلم، فقد كان إمام الدنيا محمد بن إدريس الشافعي منشغلًا بالشعر، ففتح الله عليه بكلمة قالتها له عجوز، فهداه الله بها لعلم الشريعة، وأنعم به من علم، سمعته يقرض الشعر فقالت له: إن الشعر يزين به فتى، ويقبح به كهلًا، فقال: وما الذي يزين بي فتى وكهلًا، فقالت: الفقه! فانصرف إلى الفقه، فصار عالم الدنيا! بل لقد ابتكر علم أصول الفقه، وقد كان مسائل منتثرة لا ينتظمها نظام، فشكّلَ منها علمًا، شاد بنيانه، وأسس كيانه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وهذا الإمام المحدّث الذهبي، رأى الإمام البرزالي خطّه، فقال: إن خطّك يشبه خطّ المحدّثين، فحبب الله إليه الحديث، فصار إمام عصره في الحديث! وهذا لا يأتي إلا بفتح ربّاني، وتوفيق من الله عظيم.

## فتح الدعاء

ومن غرائب الفتوح أن يفتح الله عليك في ذكره، وحمده، ودعائه!

وللفتح في الدعاء صورتان:

أن يفتح لك في باب الخشوع والإخبات، فتغشاك وأنت تذكر وتدعو مشاعر خاصّة، يعرفها المجرّبون، تذوب إزاءها جميع رغباتك، وتتلاشى كل كرباتك، وتودّ لحظتها أن تُختصر ساعات عمرك، وسنوات حياتك في تلك المشاعر الخاصّة، التي تحيلك إلى واقف بين يدي الجبار سبحانه، تبتهل إليه وكأنّك تراه، وهي من اللحظات النادرة في عمر الإنسان، وحريّ بمن استشعرها أن تكون إجابة دعواته أقرب إليه من شراك نعله!

وكأنّي ألمح هذا المقام الدعائي الرفيع في دعاء النبي ﷺ يوم بدر، ذلك الدعاء الذي انهالت فيه دموعه، وسقط فيه رداؤه، وغمرته نفحات كادت أن تنسيه وعد الله له بأن ينيله إحدى الطائفتين، حتى جاءه أبو بكر الصديق مذكرًا له بذلك الوعد!

فإذا ما ذقت هذا الذوق، واستشعرت هذا الشعور في لحظة فريدة من لحظات عمرك، فانصرف إليها بكليّتك، فلا أعظم منها، فهي العبادة المحضة، والقُرْب الخالص منه سبحانه، وعليك بأن تنسى الدنيا تمامًا، وأن تؤجل جميع مواعيدك، وأن تلغي كل

أمـورك المهمّة وغيـر المهمّـة، فأنـت لحظتها فـي أهـمّ ما يمكن تصوّره، وأعظم ما يمكن تخيّله.

أمّـا الصـورة الثانية فهـي أن يفتـح الله عليك مـن محامده في الدعاء والثناء عليه ما لم تكن تعلمه من قبل، وما لا يمكن للغتك أن تصنعـه، ولا أظنّ مثـل هذا النوع مـن الفتوح يليـق في صورته الكاملـة بأحـد إلا برسـول الله ﷺ فـي موقـف واحـد، وهـو عند سـجوده تحت العرش في يوم العـرض الأكبر، فقـد أخبر ﷺ أنّه يُفتح عليه من المحامد ما لم يكن يعلم! فلعلّ أسماء لله حسنى لم يكن يعلمها، وصفات من صفاته العُلى لم يكن يدريها، وأفعالًا من أفعاله العظمـى لم يكن يدركها مـن قبل، أوحي إليـه بها في ذلك المقام المهيب، فحمده بتلك الأسماء والصفات والأفعال، فكانت المنّة من ذي المنّة، والفتح العظيم من الفتّاح العليم.

أما في صـوره الجزئية فالـرب كريم، فقد يفتـح على عبد في دعاء بجمل وكلمـات ودعوات لو حاولهـا بقريحته لم تتيسّـر له، ولكنّها اندفعت من لسانه، وفاض بها جنانه فتحًا ووهبًا وعطاء..

### بكاء النووي

ومن أعظـم ما يفتح الله بـه على العبـد أن يجعلـه مقبلًا على القرآن الكريم، تلاوة وحفظًا وعملًا..

وكلّما زادت الصوارف، زاد معنى التوفيق والتيسير في هذا الأمر، ومما يُذكر قول ياسين المراكشي عن الإمام النووي وهو صبي صغير، يقول: «رأيت النووي وهو ابن عشر سنين، والصبيان يُكرهونه على اللعب معهم وهو يهرب منهم ويبكي لإكراههم ويقرأ القرآن في تلك الحال، فوقع في نفسي محبّته»! ولا أحتاج أن أخبرك ماذا صار بعد هذا الصبيّ المتعلّق بالقرآن، وما هي البركات التي خصّه الله بها فيما بعد، ونظرة منك لكتبه المباركة، مع عمره القصير لتجعلك تدرك شيئًا من هذه الفتوح.

ولا حاجة لاستدعاء أمثلة بعيدة، فإنّه يمكنك أن تدخل أيّ مسجد بُعيد صلاة العصر أو المغرب، ثم تنظر إلى فتيان في عمر الزهور قد عكفوا على حفظ كتاب الله، ثم اخرج وانظر إلى من هم في أعمارهم أو أكبر أو أصغر منتشرين في الشوارع يلعبون، لتعلم أنّ الله يصطفي لكتابه من أراد من عباده، ويفتح لمن شاء ما شاء من أمور الخير والعلم.

### فتوح الغرائب

ومن الفتوحات الربانيّة أن يعطيك الله العطاء بكيفية، لا يعطى ذاك العطاء في العادة بتلك الكيفيّة!

فمن ذلك أن تعطى عطاء في مدّة وجيزة لم ينله غيرك إلا في مُدد متطاولة! وقد قيل: إن الزمخشري صاحب الكشّاف في التفسير جاور في مكّة، وشرع في كتابة تفسيره وهو في معترك المنايا ودقّاقة الرقاب كما يقال (ما بين الستين والسبعين) فكتب في ثلاث سنوات ما يُكتب مثله في ثلاثين سنة! يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ووفق الله وسدد ففرغت منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكان يُقدَّر تمامُه في أكثر من ثلاثين سنة، وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت عليّ من بركات هذا الحرم المعظم»![1].

وقد أُخبرت من الثقات عن عالم من علماء هذا العصر، وقاض من قضاة المدينة النبويّة، أنّه حفظ القرآن الكريم في صباه في شهر رمضان، وهذا مما يصعب تصوّره إلا إن أدخلنا في المعادلة قانون الفتوحات الإلهيّة، التي تأتي ممن هو على كل شيء قدير! وأنا أشهد أنّي لم أر مثل حافظته، فقد كاد - بارك الله له - أن يحفظ كل شيء في الحياة، ليس العلم فقط، بل كل شيء! زاده الله علمًا وبركةً.

ومن ذلك أن تعطى عطاء تامًّا في ظروف غير تامّة! ولعلّ قصّة تأليف الإمام ابن القيّم لسِفْره العظيم، الذي لم يؤلّف في سيرة

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (المقدمة/ ٤).

النبي ﷺ مثله، وأعني به «زاد المعاد في هدي خير العباد» خير مثال على هذا النوع من الفتوحات!

فقد ألّفه في طريق سفر، وهو مكدود الخاطر، مشتت العزيمة، بعيد عن أهله، وعن كتبه! يقول رحمه الله: «وهذه كلمات يسيرة لا يستغني عن معرفتها من له أدنى همة إلى معرفة نبيه ﷺ وسيرته وهديه، اقتضاها الخاطر المكدود على عُجَره وبُجَره، مع البضاعة المزجاة التي لا تنفتح لها أبواب السدد، ولا يتنافس فيها المتنافسون، مع تعليقها في حال السفر لا الإقامة، والقلب بكل واد منه شُعبة، والهمة قد تفرقت شذر مذر، والكتاب مفقود، ومن يفتح باب العلم لمذاكرته معدوم غير موجود»[1] ومع ذلك فإنّ أنوارًا ما تغمرك إذا ما قرأت ذلك السِّفْر المبارك، تكاد تجزم أنّ روح القدس أو غيره من الملائكة كان حاضرًا بأمر من الله تعالى أثناء تصنيفه وتأليفه، يذكّر الإمام بالمسائل، ويزيّن له بعض الفصول، ويقرّب منه مفاتيح الوصول.

ومن ذلك أن ترجو عطاء، فيعطيك الله ما هو أعظم منه!

ويقال في ذلك: إنّ الحافظ ابن حجر رحمه الله أراد عند ذهابه للعمرة أن يعمل بالحديث الشريف: «**ماء زمزم لما شُرب له**»

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٦٩).

فشرب من ماء زمزم ليكون مثل الإمام الذهبي في الحديث، يقال: فكان مثله، وزاد عليه!

فانظر كيف أنّ إرادة الله لهذا العالم الجليل كانت أعظم من إرادته لنفسه! ومن أغرب وأعجب الأمثلة لهذا النوع قصّة سيدنا موسى عليه السلام، فقد رأى نارًا، فذهب إليها يريد النار لا غير، يريد منها جذوة واصطلاء، وما وقع في نفسه، ولا دار في خلده أنّ الله سيعطيه ما هو أعظم من النار، وما هو أجلّ قدرًا من كل المطلوبات، سيعطيه نعمة كلامه كفاحًا بلا ترجمان، ونعمة النبوّة والاصطفاء، ونعمة أن يكون أحد أعظم خمسة في تاريخ البشرية!

أراد الاصطلاء فنال الاصطفاء! فأين جذوة النار من هذه العطايا، وهذه المزايا، وهذه الهدايا! وصدق المولى حين قال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾..

### مواهب الفتّاح

ومما يصنعه الفتّاح لأوليائه أن يكسوهم بالمهابة، وأن ينشر لهم الذكر الحسن في الناس، وأن ينزل حبّهم في قلوب الناس، فلا يراهم الرائي إلا أحبّهم، ومن أجمل ما عُبّر به عن هذا النوع الجليل من الفتح أبيات لا أملّ من تردادها، ولا أكاد أتذكرها في

وقت من الأوقات إلا وأكررها عشرات المرّات استشعارًا لمعناها، واستلذاذًا بمبناها:

**فإذا أحبّ الله باطن عبده — ظهرت عليه مواهب الفتّاح**
**وإذا صفت لله نيّة مخلص — مال العباد عليه بالأرواح**

فمواهب الفتّاح هذه تتراءى للناس دائمًا في نوع من عبيده خاملي الذكر، لا يكاد يعرفهم من الناس أحد، يشبهون أويسًا القَرَني، خير التابعين بشهادة أصدق البشر ﷺ، يقول عنه أحدهم ما معناه: كنّا نسمع الكلام من أويس ومن غيره، فإذا ما سمعناه من أويس تخايلنا له نورًا! وهذا من مواهب الفتّاح سبحانه.

ومن مواهب الفتّاح ما رآه ابن مسعود في وجه الربيع بن خثيم حتى قال له: لو رآك النبي ﷺ لأحبّك!

ومن أعظم تلك المواهب ما رآه عبد الله بن سلام في وجه النبي ﷺ فقال لمّا رآه: فعلمت أن وجهه ليس بوجه كذّاب!

يخبرني أحدهم أنّه رأى النبي ﷺ في منامه، قال: فقمت من النوم وأنا أقول بلا شعور: كيف استطاعوا أن يكذّبوه؟

وليست هذه المواهب منحصرة في مخايل بشر تظهر في الوجه، بل قد تكون نورًا في المنطق، أو تيسيرًا للأمور عجيبًا، وأنا أعرف رجلًا قريبًا لي، اهتمّ بأرامل وأيتام اهتمامًا بالغًا، فكان يقف

على شؤونهم، وينهي أمورهم، ويراجع بهم في المستشفيات، ويوصلهم للمدارس فوالله إنّي رأيته بعدُ وقد كبر أولئك الأيتام، ولا يكاد يزور دائرة، أو يراجع جهة أو وزارة إلا وتُنجز أمورٌ تعقّدت على غيره كثيرًا، ولعلّ ذلك من الفتوح التي وهبه إيّاها الله لسعيه على أولئك الأيتام والأرامل!

وليس هناك مجال في هذه الحياة إلا ولفتح الله فيها نصيب، ولكننا حاولنا أن نأتي على جوانب لم نتطرّق إليها في كثير من فصول هذا الكتاب، لأنّها تمس هذا الاسم بمساس لطيف، وهي جوانب العلم والإيمان والمعرفة..

أسأله سبحانه أن يفتح على من يقرأ هذه الكلمات من فتوح العارفين، وأن يجعلهم ممن تهبّ عليهم نسمات رحمته وفضله، وأن تظهر عليهم مواهبه اللدنيّة، إنّه جواد بالأعطيات كريم، وفتّاح للرحمات عليم.

* * *



# القـديــر

إنّ الأشياء التي يصنعها اللّٰه

لم تمرّ بمسرح خيالاتنا

سواء كان خيال الممكن

أو الصعب أو المستحيل!

# القدير

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾، هكذا قال الله تعالى عن نفسه، فكل ما يريده إرادة كونيّة سيكون لأنّه يفعل كل ما يريد، لا رادّ لمشيئته، ولا معقّب لحكمه.

ما أعظم هذه العقيدة التي تجعل رأس المؤمن بها شامخًا، فربّه قدير، فعال لما يريد، فليس بينه وبين أن تتحقق أمامه المعجزات سوى أن يريد الله أن تكون، فيطرق باب هذه الإرادة بالدعاء والابتهال والتضرّع، ثم ينتقل من عبادة الدعاء إلى عبادة انتظار الفرج، أما سحابة القنوط فيستحيل أن تمرّ بسماء فكره، لأنّ ربّه قدير.

**ماء لا ينسكب**

ودلائل القدرة الإلهية مشاهدة في كل زوايا الكون، والنفس والحياة..

فليس سوى القدرة التي جعلتك تتكلم وترى وتسمع، وإلا فقد خلق الله مخلوقات لا ترى، وأوجد كائنات لا تسمع،

وقدّر على بعضهـا ألا تتكلم! فالقدرة جعلتـك هكذا، وجعلت تلك المخلوقات هكذا.

ولكن من عادة الإنسان ألا يُبصر القريب، ولا يُبهَر بالمعتاد، وإلا فكيـف لا تُذهلـه تلك الكواكـب السـيّارة، وتلـك النجوم المضيئة!

كيف لـم يخطر بباله أن يتأمّـل أرضًا عظيمة الحجم، شاسـعة المساحة، غالبيّتها ماء لا ينسكب؟

كيف لـم تحـرّك كوامـن إحساسـه ذلـك الجمال فـي خضرة الأشجار، ونضرة الفاكهة، وشذى الورود؟

إن الكون كتاب مفتوح لتجليات قدرة العظيم سبحانه:

**تأمّل في نبـات الأرض وانظر ... إلـى آثـار مـا صنـع المليـكُ**
**عيون مـن لجيـن شـاخصاتٌ ... بأحداق هـي الذهب السـبيكُ**
**على قصب الزبرجد شاهدات ... بــأن الله لــيـس لــه شـريكُ**

وهـذه الأبيـات العظيمـة لأبي نواس، شـاعر المجـون كما يُقال! ولهـا قصّة تُـروى، يُقال: إنّـه كتبها قبيل موتـه، ووضعها تحت وسـادته، فرآه أحدهم بعد موته في المنام وسأله ما صنع الله بك؟ فقال له: غَفَرَ لي! فاستعجب صاحـب الرؤيا لمعرفته بسيرة أبي نواس الماجنة، فسـأله: بماذا غفر لك؟ فقال: بأبيات

كتبتهـا ووضعتها تحت وسـادتي! فذهب ووجد هـذه الأبيات، وعلم ذلـك عند الله، ولكن الله غفور لا تُسـتغرب منه المغفرة، ورحيم لا تُستبعد منه المعذرة!

## أرض المُدهشات

إن شـفاء المريـض، أو معافـاة المبتلـى، أو كشـف كربـة المحزون.. من أهون ما قد تمسّه قدرة الله سبحانه، وأيسر ما يمكن لقدرة الملك سبحانه أن ترفعه وتجعله كأنْ لم يكن!

فقد وصف الله فـي كتابه الكريـم ما هو أكبر من هـذه الأمور قدرًا، وأغرب منها تحقيقًا، وأبعد منها إمكانًا.. بأنّها أمور هيّنة!

فعندما استبعد زكريّا عليه السلام أن يُرزق بولد وقد بلغ من الكبر ما بلـغ، وامرأته فوق ذلك عاقـر! وهذا في معهـودات الأمور، وطبائـع الأحوال مـن أغـرب ما يكون، فقـال القدير سـبحانه: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم: ٢١].

وتقديم الجار والمجرور «عليّ» على متعلّقهما «هيّن».. يشـي بأن ذلك من العسير والصعب بل والمستحيل على غير الله تعالى.. ولكنّه «عليه» هيّن!

ولمّا استـعظمت مريـم عليها السلام أن ترزق بولد مـن دون أب قال سبحانه: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾..

فأين شفاء مريض أو معافاة مبتلى من خلق إنسان بلا أب؟ فلذلك لا بد من استحضارك عندما تمدّ يديك داعيًا في حاجتك أنّك تدعو القدير على أن يخلق المعجزات، وأن يحقق المستحيلات، وأن يوجد المدهشات!

## الصرخة

أتعجّب من شخص يمدّ عينيه إلى السماوات، ويضرب برجليه على الأرض! ثم يستبعد أن يشفي الله مريضه، أو أن يرفع بلاءه، أو أن يحقق مراده!

يقول تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]!! تأمّل ﴿خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ وليس شفاء الناس الذين خلقهم! ولا رفع بلاء أو تحقيق رجاء..

فبما أنه قد خلق الأكبر والأعظم، فكيف تتردد في أن تسأله الأصغر والأهون؟

إن كل نجم يسبح في أجواز الفضاء لدرس في القدرة، وكل مجرّة تقطع مسافات هذا الكون الشاسع لصرخة في ضمير الإنسان، أنَّ خالقه ذو قدرة لا حدود لها! وكل مستوى من مستويات الإدراك لأعماق هذا الكون الفسيح، إيقاظ متكرر لمعنى قدرة الرب، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء..

يقدر سبحانه على كل شـيء، ليس هناك ما لا يمكن أن يفعله الله عجزًا!

لكن المهـم في هذا السـياق أن يمتلـئ قلبك يقينًـا وإيمانًا بقدرته، وألّا تطرق باب قدرته بيد مترددة، أو يدٍ مختبرةٍ، اطرق بابـه بيد كيد موسـى عندما ضرب بهـا البحر ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وأتساءل، ما الذي يجعل العبد لا يمتلئ قلبه يقينًا بقدرة من أوجده من عدم، وأغدق عليه بالنعم؟ أبَعْدَ أنْ قَدر على إيجاده، وإيجاد هـذا الكم الهائل مـن المخلوقات.. يكـون رفع اليدين إليـه بالدعاء علـى وجـه التشـكك والتـردد، وبطريقـة المختبر لا المستيقن؟

إن الله عزيز، لا يعطي أولئك الذي لا يثقون بقدرته، وبأنّه الله!

يتركهـم حتى تشـبع منهـم الأوجـاع أو يشـبعوا منهـا، وفي اللحظة التي يدركون فيها أنه هو الحق المبين، وأنّه وحده القادر على أن ينزعهم من مسـتنقع البلاء.. لحظتهـا يفتح عليهم أبواب عطاياه بماء منهمر! أما وما زال القلب متشـعبًا في وديان الظنون والتهيُّؤات! فهيهات..

## وانشق القمر

وتذكِّرنا آية: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١] بشيء من قدرة الله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

فقد اجتمع كفار قريش ذات يوم عند النبي ﷺ ليطرحوا عليه عرضًا جديدًا، واقتراحًا عجيبًا!

مسكينة عقولهم، فقد ظنّت أنها ابتكرت طلبًا يُعجز رب محمد جلّ وعلا، وينهي ما كانوا سمعوا بعضه من قدرة الله وجبروته، فأتوا إلى النبي ﷺ وقالوا له: إن شق ربّك القمر آمنا به!

لقد وصلت عقولهم إلى الغاية في البعد، وأتوا بما يصعب غاية الصعوبة أن تتخيّله أو تتوقعه العقول البشريّة، وهي انشقاق هذا الجرم الهائل انشقاقًا يُبصر من على الأرض.

فأوحى الله إلى النبي ﷺ أن أشر إلى القمر ليروا بأعينهم قدرة القدير، وعظمة العظيم، وجبروت الجبّار، فسألهم: إذا شققت لكم القمر، هل تؤمنون بي؟ فقالوا: نعم.

وكيف لا يقولون: نعم وقد طلبوا أمرًا إيمانهم وما فوق إيمانهم يقرّ باستحالته؟ فأشار النبي ﷺ بيده، فإذا بذلك الخيال المتجاوز قوانين الخيال يغدو حقيقة، وإذا بهم يبصرون القمر وهو ينشق، ويغدو نصفين، أحدهما: فوق جبل أبي قُبيس، والآخر: فوق جبل قُعَيْقِعان!

مسكين أنت أيها الإنسان إذا ما تحدّيت قدرة الملك سبحانه، ستغدو هباءة ينفخك طفل مؤمن بالله يلهو وقت الأصيل.

القمر هذا الجِرم البالغ العِظم، لا شيء بإزاء قدرة خالقه سبحانه.

## نسفًا

ينام الكافر ذات ليلة ويستيقظ وقد تبلور في نفسه تساؤل ظنّه سيجعل النبي ﷺ يتراجع عن دعوته الجديدة، وعن دينه الجديد!

سؤال ظنّه سيجعل النبي ﷺ يغيّر في إستراتيجيّة دعوته، فيقدم بعض الأمور ويؤخر بعضها بناء على الإحراج الذي سيبعثه هذا التساؤل المحيّر!

ما رأيك في الجبال يا محمد؟ وما الذي يقدر أن يفعله ربّك إزاءها؟ وهي العظيمة الشاهقة الشامخة؟

فالجبال هذه المخلوقات التي يتضاءل بإزائها الإنسان، ويغدو ذرّة بلا حجم، وبلا قدرة، ماذا سيفعل بها الله يوم القيامة؟ لقد ظنّ ذلك العقل الكافر أن الله تعالى وعزّ بقدرات بشريّة ولكنّها أرقى قليلًا، فهو يستطيع على أمور ولا يستطيع على أخرى، ومن تلك الأخرى هذه الجبال الراسية..

تساؤل تعتقد النفس الكافرة وجاهته، بينما تنظر إليه النفس المؤمنة وهي تغالب الضحك!

فإذا بالجواب يأتي من الله مباشرة! ليجتث ذلك الجهل والغرور من جذور جذوره فيقول الحق سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

وهكذا دخلت هذه الآية على عقولهم البدائيّة جدًّا، فأطفأت النور، ثم فتحته؛ فإذا بتلك الجبال قد غدت هباء منثورًا.

نسفًا! يا لعظمتك يا الله!

لم يقل: يهدمها أو يطيح بها.. فالهدم والإطاحة لا تضمن التفتت التامّ، بل قد تبقى هناك صخور ومرتفعات قائمة تحت أنقاض الجبل.. ولكن (النسف) يجعل العقل لا يتخايل غير غبار الجبل المنهار!

إن القرآن يستكشف أقصى غاية في عقول أولئك المعاندين، فتكون الإجابة وفق ما هو أبعد من تلك الغاية! مما يضمن أن تشرب تلك الأرواح المعاندة جرعة الصغار كاملة!

إنها قدرة الحق المبين، التي تغدو متواضعة جدًّا أمنياتنا وأحلامنا إذا ما قارنّاها بها، وبما يفعله سبحانه بكلمة (كن) العجيبة!

## ما وراء المستحيل

من غريب قدرة الله تعالى أنّها لا تتوقّف عند الأشياء التي نظنّها مستحيلة، أو صعبة، بل قدرته في الصنع تشبه إبداعه في الخلق! إنّ الأشياء التي يصنعها الله لم تمرّ بمسرح خيالاتنا سواء كان خيال الممكن أو الصعب أو المستحيل، كانشقاق البحر، فلا ملك مقرّب ولا نبي مرسل خطر بباله أن الانشقاق شيء يستحيل أن يحدث للبحر؛ لأن الخيال من المستحيل أن يتخيّل مثل هذا الأمر، فانشقاق البحر ليس مستحيل الوقوع فقط، بل مستحيل التخيّل! فهو فوق طاقة البشر في التخيّل، ومع ذلك ينقله الله من خانة عدم التخيّل إلى خانة الوقوع! لأنّه القدير سبحانه.. الذي قدرته ليست غير قدرة البشر، بل غير ما يعرفه البشر عن القدرة!

قل مثل ذلك فيما حدث لبني إسرائيل عندما طلبوا رؤية الله سبحانه، يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧١].

إنّ رفع الجبل أمرٌ لا يدور في العقول خيالًا، فضلًا عن أن تتصوّره العقول محالًا، فتخرجه قدرة الحيّ الذي لا يموت من خانة عدم التخيّل، ليكون حقيقة يراها بنو إسرائيل بأعينهم، وتهديدًا يرعب قلوبهم!

ومن عجائب قدرته أنّه سبحانه لا يمنعه عن أن ينزل العقوبة على العصاة إلا أنه حليم ودود! فإذا ما استنزل العبد الغضب بأن فعل المعصية على وجه المكابرة والمعاندة، فعند ذلك تندفع العقوبة لا يردها راد، والله على كل شيء قدير!

يروي الزمخشري في تفسير آية: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك: ٣٠] أنّها تليت على أحدهم فقال: تجيء به الفؤوس والمعاول، فذهب ماء عينيه، نعوذ بالله من الجرأة على الله وعلى آياته[1].

وأنا أستعجب كيف استطاع أن ينطق بها؟ وكيف أنّ بعض القلوب تخلو من وميض خشية توقفها عند حدّها! فهذا الجبار سبحانه لا يستهان بقدرته وبجبروته!

يقول ابن الجوزي في صيد الخاطر: «أسرع المعاصي عقوبة ما خلا عن لذة تنسي النهي، فتكون تلك الخطيئة كالمعاندة والمبارزة؛ فإن كانت توجب اعتراضًا على الخالق، أو منازعة له في عظمته: فتلك التي لا تتلافى، خصوصًا إن وقعت من عارف بالله، فإنه يندر إهماله»[2].

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٥٨٣).

(٢) صيد الخاطر (ص: ٣١٤).

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصة لرجل من أهل خراسان كتب مصحفًا في ثلاثة أيام، فلقيه رجل، فقال: في كم كتبت هذا؟ فأومأ بالسبابة والوسطى والإبهام، وقال: في ثلاث ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] يقول: فجفت أصابعه الثلاث، فلم ينتفع بها فيما بعد.

إنّه القدير الذي لا ينبغي أن يُستغضب؛ لأنّه يقدر على أن يسكتك بكن فيكون!

ومما أورده ابن الجوزي في ذات السياق أنّ فصيحًا من الفصحاء خطر بباله أنه يقدر أن يقول مثل القرآن! (ونعوذ بالله من الخذلان) فصعد إلى غرفة في بيته، فانفرد فيها، وقال: أمهلوني ثلاثًا! فصعدوا إليه بعد الثلاث، ويده قد يبست على القلم، وهو ميت.

كم أنت هيّن على الله إذا حاولت أن تستغضبه!

يحكي الإمام الذهبي في سيرة الصحابي الجليل أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّه لما فُتحت قبرص، مُرّ بالسبي على أبي الدرداء فبكى! فقيل له: تبكي في مثل هذا اليوم الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله! فقال: بينا هذه الأمة قاهرة ظاهرة؛ إذ عصوا الله، فلقوا ما ترى، ما أهون العباد على الله إذا هم عصوه![1] وصدق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ما أهونهم وأضعفهم وأوهنهم!



(١) سير أعلام النبلاء ط الحديث (٤/ ٢٢).



# الــولــي

إنها المعركة الأكثر رهبة في تاريخ الحروب، عندما يكون الله بعظمته وكبريائه وجلاله وجبروته في الجهة المقابلة لك! يحاربك بقدرته التي ليس لها حد، وعلمه الذي يملأ الدنيا والآخرة، وبغضبه الشديد! ستتدمّر ولا شك، وستهزم، وستنتهي نهاية مأساوية!

# الـولــيّ

نحمد الله من أعماق أعماقنا على أنّه الوليّ..

ويعني اسم «الولي» معنيين:

معنـى أنّه وليّ يُعبـد ويطاع، ومعنـى أنّه وليّ يدبّـر ويعين.. فالولاية من العبـد الطاعة والعبـادة، والولاية من الـربّ الإعانة والإفادة!

ثم إن ولاية الرب سبحانه لعباده على مستويين، عامّ وخاص:

فالولايـة العامّـة تعـمّ جميع الخلـق، فهـو المدبّر لمعاشـهم، والمعين لهم على ضوائق الحياة واحتياجاتها..

والولايـة الخاصّة تخصّ عبـاده المؤمنين، فهـو وليّهم بنصره، وبهدايته، وبفضله وألطافه.

يقول الشيخ السّعدي: «فالله هو الولي الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته، والتقرب إليه بما أمكن من أنواع التقربات، ويتولى عباده عمومًا بتدبيره، ونفـوذ القـدر فيهـم، ويتولـى عبـاده المؤمنيـن

خصوصًا، بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتربيتهم بلطفه، وإعانتهم في جميع أمورهم»[1].

## هباءة

كيف كنّا سنعيش ونحن الضعفاء في عالم تحاصرنا فيه متطلبات فوق قدراتنا؟ وواجبات أضخم مما نستطيع أن نعمل، وتحديات تتجاوز استطاعتنا على مواجهتها؟

الإنسان هباءة في كون فسيح، إذا لم يأته مدد الإعانة والتوفيق والتيسير من الله ضاع..

ولما علم الله ضعفنا وقلة حيلتنا شرع لنا أن نستعين به، بل إنّ أعظم مراقي العبودية تتمظهر عند أدنى درجات الحاجة إلى عونه! لذلك فقد قرن الله بين العبادة من العبد والعون من الرب في آية هي من أعظم ما أنزله في كتابه، الآية التي تضمنت سرّ القرآن كاملًا كما يقول بعض العلماء وأعني قول الحق تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]..

فلا يستطيع العبد أن يكون عبدًا إذا لم يُعنه الله..

ولا يكون عبدًا إذا لم يطلب العون من الله..

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمٰن (ص: ٧٥٣).

ولا يكون عبدًا ما لم يشعر بضرورة أن يعينه الله..

والولاية تكون بين الإنسان والإنسان على شكل صداقة أو إعانة ونصرة، ولكنها فيما بين الإنسان والرب تكون على هيئة العبادة من المخلوق، والإعانة والتدبير واللطف والنصرة من الرب سبحانه.. لذلك قال الحق تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ ﴾ [الشورى: ٩].. ليس هناك ولي يعوّض عن حاجة الروح إلى ولاية الله تعالى.. ووجوده في حياة العبد بالتدبير والإعانة والنصر والتأييد..

## بدء المعركة

ومن جلالة هذا الاسم أنه يشير إلى ولايته سبحانه لبعض خلقه، وحبّه لهم، وحمايته ودفاعه عنهم.. فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب**»[١].

الله الذي على عرشه استوى، يعلنها حربًا طاحنة، يطحن بها سعادة وهناءة أولئك الذين يتعرّضون لأوليائه بالأذى! إنه وليّهم، ولا يترك الوليُّ وليَّه، بل يحوطه بحبه وعنايته، ويصنعه على عينه، ويصطنعه لنفسه!

---

(١) صحيح البخاري (٨/ ١٠٥).

إنها المعركة الأكثر رهبة في تاريخ الحروب، عندما يكون الله بعظمته وكبريائه وجلاله وجبروته في الجهة المقابلة لك! يحاربك بقدرته التي ليس لها حد، وعلمه الذي يملأ الدنيا والآخرة، وبغضبه الشديد! ستتدمّر ولا شك، وستهزم، وستنتهي نهاية مأساوية!

وهناك حديث قدسي لفظه عجيب، ذكره غير واحد من أهل العلم، منهم ابن تيمية في كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» عن النبي ﷺ عن الله تعالى أنه قال: «**إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرِب**»!

يقول شيخ الإسلام: «أي: آخذ ثأرهم ممن عاداهم كما يأخذ الليث الحرب ثأره»[1] فيا لذعر من يمسّ وليًّا من أوليائه سبحانه، ويا لخيبته وخسارته!

## وينشر رحمته

عندما تعطش الأرض، وتأخذ الحياة في الاضمحلال، وتتجه صوب الموت! والناس ينظرون إلى السماء يرقبون الفرج، يظهر اسم الوليّ الذي يأذن للسحاب أن يمطر، وينشر

(١) الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان (ص: ٨).

رحماته على عبيده وأوليائه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الشورى: ٢٨]..

عندما تدهمك طبقات الظلام والعماية، ولا تستطيع أن تنفذ من سُدَف القتامة، ولا تدرك الحق من الباطل ولا الصواب من الخطأ.. وتأخذ بك الحيرة أخذتها.. يضيء لك الولي بنوره تلك الظلمات فتتبدد، وتعرف الحق من الباطل، وتنتقل من الظلمة إلى النور: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]..

دائمًا اسم الولي يظهر في حياتك ويضفي عليها الأمن والسلام والسعادة والاطمئنان..

## وجيف قلب

يأمرك الله بالأمر، ثم يعينك بالقوّة على امتثاله، ويعينك بأن يجعل روحك تهفو لعمله وترتاح إليه، ويعينك بأن يعدك بالأجر العظيم على عملك له، ويعينك بأن يجعل الحياة من حولك تمتثل مثلك، فتشعر بانسجام مع الحياة بأكملها..

وينهاك عن أمر، ثم يعينك بأن يجعل تطلّبه عسيرًا عليك، ويوصد الأبواب المفضية إليه، ويعينك بأن يغمرك بكآبة ووجيف قلب إذا ما اقتربت منه، ويعينك بأن يحيطك بالندم ساعة فعله حتى لا تكرر فعله، ويعينك بأن يتوعدك بالعقوبة إذا ما عملته،

ويعينك بأن تشعر بأنّك في عناد مع حياة ترضخ بأكملها لعبودية رب عظيم!

فهو الوليّ الحميد.. وهذه الإعانة التي تحيط حياتك هي مظهر من مظاهر الولاية..

### الدرع الواقي

ومن مظاهر ولايته سبحانه أن يخلق خلقه ضعفاء، ثم يجعل من ضمن ما يخلقه فيهم قوى ووسائل تعينهم على هذه الحياة من جانب جلب المنافع وجانب دفع المضار!

يخلق الطير ثم يعينه بجناح ليحلّق عاليًا، ويخلق الفيل ثم يعينه بضخامة ليتحدّى المصاعب، ويخلق الحصان ثم يعينه بالقدرة على العدو ليتجاوز المخاطر، ويخلق الغزال ثم يعينه بقرون صُلبة ليواجه بها السباع، ويخلق الحرباء ثم يعينها بالقدرة على التلوّن لتصطاد فرائسها، وتختفي عن أعدائها..

ليس هناك كائن إلا وقد خلق الله فيه ما يضمن له الحماية، ويشكّل له الدرع الواقي من الأخطار! إعانة منه وحفظًا..

ومن مظاهر ولايته أنّه يجعل الأم تحنو على صغيرها، ليعينه بذلك الحنان على أن يعيش في حياة لن يستطيع أن يعيش فيها يومًا واحدًا معتمدًا على نفسه!

هل سبق ورأيت أنثى تُريك الحياة أنوثتها الضعيفة، ثم لمّا يُعتدى على صغارها تتحوّل إلى سبع ضار تحوط صغارها وتدافع عنهم بشراسة.. ذلك التحوّل مظهر من مظاهر ولايته سبحانه على خلقه!

## يتيم ولكن

وإذا أراد من أحدهم أن يكون عالمًا، تجد نوافذ الإعانة تُشرع من حوله، ليدلف من خلالها إلى مراتع العلم، ومعاهد المعرفة!

هذا اليتيم أحمد بن حنبل لمّا أراده عالمًا جعل في قلب أمّه رغبة في تعليمه، وصبرًا على الذهاب والعودة به من وإلى حلق العلم في بغداد!

ثم أعانه بحافظة قويّة استطاع بها أن يحفظ مئات آلاف الأحاديث، ويبثها بين طلابه..

وأعانه بفهم استطاع أن يصنع بواسطته مذهبًا فقهيًّا ما زال خصبًا ثريًّا حتى اليوم!

ثم أعانه على الصمود في وجه الانحراف العقدي والظلم السياسي ليكون إمام أهل السنة والجماعة في زمنه، فيجدد للناس أمر دينهم بعد أن حوربت السنة وبُغي على أهلها..

هـذا عالم، فكيف لو رحنا نسـرد قوائم العلماء سـواء كانوا علمـاء دين أو لغـة أو علـوم طبيعيـة أراد الله أن يضيئـوا العالـم بعلمهم، ويدفعوا عجلة الحياة إلى الأمام؟

## أخبره بتفاصيلك

وإجابة الدعوات من أشكال ولايته لعباده، وحبّه، وإعانته!

يتصل رجل صُبّت عليـه أنواع البلايا، وأصنـاف الهموم بأحد الدعاة، ويشكو إليه ما أصابه من توالي البلاءات، ويشرحها شرحًا مفصّلًا، والشيخ يسترجع بتأثّر، ثم في نهاية الاتصال يتنهّد المتصل طالبًا الحل والإرشـاد من الشيخ! يقول الشـيخ: فقلت له: والله لو كنت أسـتطيع أن أفعل شـيئًا حيال ما أصبت به لفرّجت عنك هذه الهموم، ولرفعت عنك هذه الكربات! ولكن سأوصيك بوصيّة أظنّ فيهـا مفتاحًا للفـرج، وتخفيفًا للكُـرَب، أريدك الليلـة أن تقف بين يديه سبحانه، ثم تسجد له سـجدة طويلة تشرح فيها لله ما شرحت لـي، وتفصّل فـي دعائـك ما فصّلـت لـي، ولا ترفع رأسـك وفي نفسـك شـيء لم تقله له. انتهى الاتصال، ولم يعلم الشـيخ جديّة ذلك المتصل في عمله بالوصيّة..

قـال: وبعد أسبوع واحد فقط اتصـل عليّ نفـس الرجل وفي صوتـه الفرح، وفـي كلماته السـعادة، وفـي نبرته همـوم انفرجت،

وكربات تلاشت، ثم قال: يا شيخ، لم يُبق الله شيئًا من همومي لم يفرّجه.. لقد مسح الله جميع كروبي بسجدة واحدة، وانحلت جميع مشاكلي العالقة من سنوات في أسبوع واحد!

ثم قال في نهاية الاتصال: لن أطيل عليك يا شيخ، ولكنّي أريدك أن تخبر كل مكروب ومهموم ومبتلى أن يسجد لله سجدة طويلة ويخبره فيها بكل شيء، وأن يشرح تفاصيل الدموع التي ذرفها في ليالي أحزانه، ولا يرفع من سجوده وفي نفسه شيء لم يقله لله.. ثم ليبشر بكل خير..

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

### يتولى الصالحين

في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٦] يقول صاحب لطائف الإشارات: «من قام بحقّ الله تولّى أموره على وجه الكفاية، فلا يخرجه إلى أمثاله، ولا يدع شيئًا من أحواله؛ إلّا أجراه على ما يريده بحسن أفضاله»[١].

---

(١) لطائف الإشارات (١/ ٥٩٧).

ومعنى «فلا يخرجه إلى أمثاله»، أي: لا يجعله محتاجًا إلى بشر مثله، بل يتولى سبحانه جميع أمره. والله أعلم.

يقول الآلوسي في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

«أي: ومن عادته جل شأنه أن ينصر الصالحين من عباده ولا يخذلهم»[1].

وما أجلّها من عادة يعود بها المولى على أوليائه، كلما احتاجوه، وهل هناك من لحظة تمر على العبد دون أن يحتاج إلى ربّه تعالى، حفظًا وهدايةً وإعانة..

ويستشف من وصفه تعالى لنفسه في هذه الآية بأنّه ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بأنّ هذا الكتاب هو منشور الولاية، يقول أبو السعود: «ووصفُه تعالى بتنزيل الكتابِ للإشعار بدليل الولايةِ»[2] فمن تمسّك به علمًا وحفظًا واستهداء فهو الوليّ حقًّا، وهو المنصور والمحفوظ صدقًا..

والصالحون الذين يتولاهم هم أهل هذا القرآن الكريم.. وكلما اقترب العبد من القرآن علمًا وعملًا واعتقادًا، فقد اقترب من الولاية نصرة وتأييدًا وإعانة.

---

(١) تفسير الآلوسي = روح المعاني (٥/ ١٣٦).

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣/ ٣٠٧).

ومما ينبغي على المسلم أن يجعله في أعلى قائمة مشاريعه، مشروع حفظ القرآن، وجعله من موجودات القلب، ومذكورات اللسان، فلا ينبغي على العبد أن يلغي فكرة حفظ القرآن من عقله بحجة أنّه ليس بطالب علم، أو لأنّ عمره قد كبر، أو حتى لتقصير يراه في نفسه، فحفظ القرآن مشروع المسلم في حياته، سواء استطاع أن يتمّ حفظه، أو على الأقل أن يحفظ منه ما استطاع، فهو نور في القلب والوجه، ودليل على أن الله الأعز الأجل هو شغلك وإرادتك وأهم اهتماماتك، وأنس في القبر، ورفعة في الدنيا والآخرة، وليس لحفظ القرآن عمر محدد، ولا لحفظة القرآن تخصص معيّن! التخصص الوحيد لهم هو الإسلام، فما دمت مسلمًا فاجعل في صدرك مكانًا لكتاب الله، وسوف تزهر به حياتك ولا شك! ولا تتجاوز هذه الأسطر إلا وقد عقدت العزم على أن تبدأ من اليوم حياتك مع القرآن، وأبشر بالإعانة من الله، والتأييد من الولي الحميد، وترقّب الكرامة والهداية والنور المبين.






# القــوي

ويخص القويّ المتكبرين بأعجب النهايات،

وأغرب الأمراض، وأنكى الأوجاع،

ليعلم الضعفاء أنّ الله وحده القويّ،

وكل ما عداه ضعيف هزيل متهالك!

# القـــوي

سـبحان من جعـل الضعـف صفـة لازمـة للإنسـان، ونعتًا مُصاحبًا لحياته القصيرة! فتغلبه الأمراض، ويهزمه الفقر، ويقهره المتكبّرون من خَلْق الله، وجَعَل سبحانه القوّة له، والكبرياء له، والعظمـة له، حتـى يلجـأ إليـه الضعفـاء فينصُرَهـم، ويلـوذَ به المنكسـرون فيجبُرَهم، ويتوجّـه إليه المكروبون فيرفعَ مـا بهم من كَرب.

فهو القويّ العزيز، لا قوّة تقوم مع قوّتـه، كلُّ الأقوياء ضعفاء على أعتاب جبروته، وكل المتكبرين مساكين في إيوان ملكه.

فلنفتح نافذة نطلّ من خلالها على شيء يسير من مظاهر قوّته، حتى تمتلـئ قلوبنا بخشـيته، وحبّـه والركـون إليـه، والتعالي على صغائر الحياة التي ظنناها أمورًا كبيرة!

حتى إذا ما لاقينـا متكبرًا عرفنـا أنّه مجرّد مغـرور، أمهله الله، فظنّ بنفسه الظنون، وأنّ الله إذا شـاء أنهى كبرياءه وغروره بأصغر حشرة، وبأغرب نهاية، وبأشدّ ألم، والله عزيز ذو انتقام.

## ولا قوّة إلا بالله

من ظلال اسم الله القوي أنّه هو الذي يهب القوّة لمن استمدّها منه سبحانه، فمن قوّته تستمد القوى التي تعين المسلم على أداء عباداته، بل وعلى النهوض بمهامّه الحياتيّة..

يصف أحدهم حالة ضعف مرّت عليه بأنّه نتج عنها أن لم يعد يتمكّن من السعي بين الصفا والمروة إلا وهو جالس على كرسيّ يدفع دفعًا، ليس ذلك في عمرة ولا اثنتين، بل خمس عمرات تقريبًا، وهو ولا شك يؤمن بقوّة الله، وبأنّ استمداد القوّة لا يكون إلا منه سبحانه، ولكنّ اليقين بمثل هذه الفروع الإيمانيّة مما يلحقه الزيادة والنقص، وتعلوه في كثير من المرّات أغبرة القسوة.. يقول: وفي بداية إحدى الرمضانات سمعت من شيخ موفّق تذكيرًا خاصًّا بالذكر العظيم (لا حول ولا قوّة إلا بالله).. وبأنّ قوّة عجيبة تحصل لمن يقول هذا الذكر موقنًا به، وبأنّ تحويل الحال والقوّة في جميع الأحوال هي هبة من الله، وهذا الذكر هو بمثابة استجداء واستيهاب لهذه القوّة!

وكأنّ هذه الموعظة وهذا التذكير وقع من هذا الرجل موقعَ الإيمان والتعظيم، فلزم هذا الذكر متأملًا وذاكرًا وغاسلًا قلبه به..

وما هو إلا أنّ أفاض القوي على جسده أنواعًا من القوّة والجلد والنشاط، بحيث إنّه في ذلك الرمضان والشهر الذي يليه

اعتمر ثلاث مرات كان فيها يكاد يركض ركضًا بين الصفا والمروة، ولم يعد بحاجة إلى كرسيّ يُدفع.. بل وبات يشتكي من بعض رفقته الذين كان هو مصدر تأخير لهم في المرات السابقة؛ بأنهم يسببون له التأخير بعد انتهائه من عمرته!

فمن قوّته سبحانه تُستمد القوى، وبفضلها تذوب الكثير من الأوجاع والآلام والصعوبات، لأنّ القويّ هو وحده من يجعلك قويًّا تتجاوز ضعف جسدك، وهشاشة روحك، وانكسار نفسك..

### المصباح العظيم

يريك سبحانه قوّته آناء الليل وأطراف النهار حتى تملأ ذرّاتك به، ولا يكون في نفسك خوف إلا منه، ولا اعتماد إلا عليه، ولا انصراف إلا له.

يجعل من قوانين الكون أنّ المحمول لا بدّ له من حامل يحمله، فلا يمكن لقشّة أن ترفع نفسها من على وجه الأرض إلا إذا مدّ أحدهم إليها يده ليحملها، فإذا ما امتلأت نفسك بهذا القانون، وبهذه الحقيقة الفيزيائيّة، إذ بقوّته تبهتك، وتتجاوز قوانين الفيزياء، وحقائق الأشياء، فتريك الشمس ذات الجرم العظيم، وذات المهمّة الدقيقة تتحرّك في فضاء الكون دون يد تحملها، فيلفت هذا الدرس الكوني قلبك إلى القويّ الذي

كلمة منه تجعل مصباحًا عظيمًا بحجم الشـمس يرتفع ويتحرّك ويجري لمستقر له.

بـل انظـر إلـى السـماء هائلـة العِظَـم، واسـعة الفنـاء، مترامية الأطـراف كيف أنّها مرتفعـة بلا عمد، يقول سـبحانه ليذكّرك بقوّته فلا تنساها: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧] والأيْد القـوّة! ولك أن تتسـاءل عـن قوّة رفعـت السـماء سـقفًا محفوظًا، مٰا الذي يمكنه أن يقف إزاءها؟

فإذا ما أردت أن ترى شـخصًا ممن يدّعـي القوّة والتجبّر على حقيقته، فتخيّل موقعه من حقيقة خلق السماء بلا عمد، لتعلم مدى هشاشته، وضعفه، وانكساره أمام ملك الملوك.

## إنّـي سقيـم

وليعلم الإنسـان شـيئًا عن قـوّة خالقـه لينظر إلى ضعفـه وقلّة حيلته في حالة المرض!

فمن الأكدار التي يواجهها الإنسان، بل تواجه الإنسان بشراسة وعنف كدر المرض، بجميع أنواعه، سـواء أكان إنفلونزا، أم ورمًا خبيثًا، فللمرض جوّه الخاص، المليء بالأنين، والعجز.

لقـد سـلّط الله على الإنسـان فـي هـذه الدنيـا كمًّا هائـلًا من الأمراض، ليعلن الإنسـان عجزه في هذه الحيـاة، وكمال احتياجه

للقوي سبحانه، فلا يغتر بقوة ما، لأن المرض يوهنها، ولا بمال وفير، لأن المرض يبعثره، ولا بقبيلة وعصابة، لأن المرض يخترمهم جميعًا.

ارتفاع درجة حرارة الطفل إلى أربعين درجة لفترة ما تؤدي به إلى التشنج، الذي يعتبر من أسباب الموت، أو الشلل في أحسن حالته.

وهذه الحرارة المرتفعة إن تكررت مع البالغ قد تؤدي إلى ذهاب شيء من عقله، فيتحدث بهلاوس لا حقيقة لها!

من النادر جدًّا أن يصاب أحد أفراد العائلة بالجدري المائي ثم لا تصيبهم العدوى عن بكرة أبيهم، ما أضعفك يا إنسان!

قلة منسوب الأكسجين يهدد حياة الجنين، ويسبب له ضمورًا في الدماغ، هذا الضمور الذي يجعله في حالات مشلولًا، أو معتوهًا، أو ناقص الكفاءة.

إذا سقط هذا الإنسان على ظهره، وتأثر العمود الفقري، قد تجلب له تلك السقطة شللًا كاملًا، أو نصفيًّا!

تعرض الإنسان للفحة هواء باردة مفاجئة، قد تصيب العصب السابع بالتهاب، يشل نصف وجهه.

قد يسهر الإنسان ليالي عددًا بسبب التهاب ضرس، أو ألم أذن، أو صداع نصفي!

قرحة المعدة تجعل الحياة جحيمًا، مما يجعل أبسط وجبة يأكلها الإنسان تكلّفه نوم ليلة بأكملها!

قبل سنوات استضاف أخي الأكبر شيخًا كبيرًا من رجال القبيلة مصابًا بالسرطان، لأن المستشفى التي يراجعها في مدينتنا، فكان يذهب إلى المستشفى يوميًّا، ويعود في الليل، وهو منهك القوى، أذكر وهو يقول لأولاده: متى سأموت؟ يريد أن يستريح.

جدتي أصيبت بما يسمّى بالحزام الناري، وهو مرض عصبي فظيع، آلامه كالسياط، لازمها أكثر من سبع سنوات، صارت تنادي الموت، تريده في أي لحظة أن يأتيها، ويخرجها من ذلك الجحيم.

## يقهر المتكبرين

النمرود بن كنعان، الذي يقول: إنه يحيي ويميت، يسلط الله عليه بعوضة، تدخل من أنفه إلى رأسه، وتظل تحرك أجنحتها في داخله، فيشعر بآلام الدنيا تهجم عليه، ولا يسكّن ذلك الألم إلا أن يضرب بالنعال على رأسه؟ لماذا لم يحي نفسه، ما دام أنه يحيي ويميت؟

الذي زعم أنه الرب الأعلى يغرق، والذي زعم أنّه أوتي كنوزه على علم عنده يخسف الله به وبداره الأرض، والذي يقول: قبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي يصيبه الله بمرض نفسي مهلك، فيسير في الصحاري ويقول: لا مساس، لا مساس!

نيتشه، يعلن موت الله! ـ تعالى الله ـ فيصيبه الله بالجنون، فيقضي آخر حياته متنقلًا من مصحة إلى مصحة!، ويؤلف كثيرًا من كتبه تحت وطأة الوسوسة والهلاوس الغريبة، حتى كتابه «هكذا تكلم زرادشت» يكتب ثلاثة فصول منه وهو تحت ضغط أوهام ووساوس غريبة لا يعرف لها كنهًا!

من الذي جعله يسكن المصحات في آخر حياته، وترفض جميع نساء عصره الاقتران به لكون الزهري أحد أمراضه؟ من الذي جعله يتكوّم في فراش المرض كقطة تعيسة؟ قل: الله.. ثم ذرهم في طغيانهم يعمهون..

ودائمًا يظهر القوي بأفعاله ليذكّر العبيد بضعفهم وحاجتهم إليه، ومدى بُعدهم عن سننه التي أنزلها لخلقه، تنتشر الممارسات اللاأخلاقية في بعض المجتمعات، ويجاهر بها، فتظهر أدواء وأمراضٌ لم تكن معروفة من قبل، مثل مرض نقص

المناعـة المكتسـب (الإيـدز) الـذي يطـارد هاجسـه أصحـاب العلاقات المحرّمة، ويظهر لهم في أحلامهم، قبل أن يظهر في أجسـادهم، وهو مـرض غريب، فقـط يُفقـد أو يَنقُص الجسـد مناعتـه ومقاومته للأمراض، فتقضي عنـد ذلك أخف الأمراض علـى الإنسـان، فيعيش آخـر أيامه فـي آلام مبرحة، يرى شـبح الموت في كل زاوية ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١٣]..

## جرعـة

أصيـب أخـي بمغـص كلـوي، فـكان منظـره على السـرير الأبيض مؤلمًـا لي، كان ضعيفًا كالطائر الكسـير، لا يقوى على شـيء، يعصره الألم عصرًا، وكـم تمنيت صبيحتها أن أشـاطره الألم، حتى أخفّف عنه شيئًا مما به.

تناول صديقي جرعة زائدة مـن دواء له ـ خطأ ـ فذهبتُ به إلى المستشـفى، لـم أكـن وأنـا أراه ينتفـض، وتنتفخ عروق جبهتـه لأتصـور أن ملحـدًا مثل «جـان بول سـارتر» سـينـادي بألوهية الإنسـان! ما قيمـة إله لا يسـتطيـع أن يمنـع الآلام أن تغزو جسده!

أيتركون القويّ سبحانه، ويذهبون إلى الذي لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا حياةً ولا موتًا ولا نشورًا؟

## الجبـال

كلّما كبر في نفس الإنسان شيء، وبلغ من الكِبَر المنتهى، بدّدَ سبحانه ذلك الشيء بكلمة منه! ليغدو ذلك الشيء عدمًا لا وجود له!

تَكْبُر الجبال في نفوس مشركي مكّة، ويأتون ليسألوا النبي ﷺ عنها، وقد ظنّوا أنّهم أتوا للحديث عن العظمة في أضخم أمثلتها، فإذ بالقوّة الإلهيّة تبعثر ذلك الإحساس في نفوسهم، فيقول الحق: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧]

لا يُبقي سبحانه حجرًا من ذلك الجبل الذي كبر في نفوسهم إلا وأرداه هباءً ليس فيه إلا الضعف والاضمحلال!

البحار العريضة، تحوّلها قوّته إلى نيران!

والجبال الراسية، تغيّرها قدرته إلى سحاب!

والشمس والقمر، تلقي بهما عظمته في قعر جهنّم!

إنّ أقوى شيء يمكنك أن تتوارى خلفه ليحميك، ويشتت مخاوفك، ويكون ركنك الشديد في عالمك المخيف جدًّا هو قوّة الله!

فإذا أرهبتك الأمراض فالجأ إلى القويّ..

وإذا زعزعتك المخاوف فتوكّل على القويّ..

وإذا هدّ قواك الظلم فاستجر بالقويّ..

## بعوضة

ويخص القويّ المتكبرين بأعجب النهايات، وأغرب الأمراض، وأنكى الأوجاع، ليعلم الضعفاء أنّ الله وحده القويّ، وكل ما عداه ضعيف هزيل متهالك!

أتدري كيف أنهى سبحانه أسطورة النمرود بن كنعان، الذي قال قال بغرور: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؟ لقد أنهاها ببعوضة دخلت من أنفه، فجعلت ترفرف بجناحها الضئيل في جمجمته، فتصعقه أشدّ الأوجاع فتكًا، فيموت كما يموت أضعف حمار في الدنيا!

أتدري كيف جعل الله الفصل الأخير ينتهي من رواية فرعون؟ فرعون الذي قال ذات يوم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]! فرعون الذي أمر وزيره هامان ذات كبْر أن يبني له صرحًا ليطّلع على الله! ليطّلع على ذي القوّة المتين! أتدري ماذا فعل ذو القوّة المتين به؟ لقد جعل أمواج البحر تصفعه من كل الجهات، ليموت غرقًا، ويصبح طُعمًا لأسماك البحر، وغذاء للكائنات وحيدة الخليّة!

ومـن مظاهر قوّته وعزّتـه أنّه يجعل بعض أعدائـه يقومون هم بسـحق أنفسـهم، وإنهاء حياتهم، ووضـع النقطة الأخيـرة في آخر سجلاتهم الهشّة!

متكبـر مـن المتكبرين اسـمه «أدولـف هتلـر» يقـرّر أن يحتل العالم، ويشرع في تنفيذ حلمه، فتخضع له دولة تلو دولة، ويتسبّب في حرب يروح ضحيّتها سبعون مليون إنسان!

أتـدري ماذا فعـل به القويّ؟ أرسـل إليـه جنديًا اسـمه الهلع، ليغـزوَه من كل جانـب، وينتـزع من أعماقـه ذلك الغـرور، وذلك الكبرياء المزيّف، فيتناول سمًّا قاتلًا، ليُنهي به أكذوبة اسمها هتلر! هتلر الذي لا يُقهر! يفقد الذي يريد السـيطرة على العالم السـيطرة على مخاوفه! ويقتل نفسـه بنفسـه. أتـدري لماذا فعـل ذلك؟ لأنّه ليس القـويّ العزيز! لأنّ الله خلقه من ضعف، ويسـتحيل على من خُلق من ضعف أن يكون قويًّا!

كل المتكبريـن الذيـن زعمـوا حينًا مـن الدهر أنّهـم أقوياء، وأذكياء، ونجباء! ماتوا الآن. باتوا أثرًا بعـد عين، لقد مزّقهم الله كل مُمزق! وصاروا كما قال سـبحانه ﴿أَحَادِيثَ﴾! مجرّد قصص تـروى، وأحاديث تسـرد آخـر الليل لينـام الصِّبْيَة! أمّـا قصورهم العظيمة، وبلاطهم المهيب، وجيوشهم الجرارة، فقد دخلت إلى

مستودع البرزخ الضخم الذي يجمع الله فيه المتكبرين، ثم يوفيهم حسابهم، والله سريع الحساب.

## بين الخيام

حج الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز، فخرج سليمان إلى الطائف، فدوّى الرعد والبرق، ففزع سليمان، فقال لعمر: ألا ترى، ما هذا يا أبا حفص؟ قال: «هذا عند نزول رحمته، فكيف لو كان عند نزول نقمته»[1].

ويخرج في سفر بعساكره ودساكره، وهو ملك الدنيا، تهابه ملوك الأرض، وترجف أفئدة الكبراء إذا ما جاء ذكره، يخرج مع جيشه الضخم، الذي لا يحيط به البصر، وفي ذات ليلة يشعر بألم في جسده، فيراه أطباؤه فيقررون أنّه مصاب بمرض اسمه «الموت» وأنّ أيامه صارت معدودة! وأنّ وصوله إلى دار الخلافة «دمشق» بات صعبًا، فتبرّحه آلامه ذات ليلة، فيخرج من خيمته، لينظر إلى خيام جنده وهي مدّ البصر، فيرفع عينيه إلى السماء في ضعف وانكسار ويقول: يا من لا يزول ملكه، ارحم من زال ملكه..

لا قوّة تعادل قوّته، ولا ملك يشبه ملكه.. إنّ ملكه لا يزول، وقوّته لا تحول، وكبرياؤه لا يموت.

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٢٨٨).

لم يكن يظن سليمان بن عبد الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ أوامره المطاعة لن تجلب له الدواء لحظة احتياجه له، لم يدُرْ بخلده أنّه ـ وهو يملك الممالك الشاسعة ـ سيموت في خيمة! لم يظنّ أن اللحظة التي يصبح فيها جثّة هامدة ستأتي لا محالة!

الخليفة العباسي هارون الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك الخليفة العظيم، الذي كان يهتف للسحابة أن أمطري حيث شئت، فإن خراجك سيأتيني!

يكون في قصره ذي الشرفات المذهبة، والأفنية الواسعة، فإذ بأوجاع الموت تزوره، فيرقد في حجرته ذات النمارق والزرابيّ، رقدة تنغّصها كربات الوداع، فإذ بغسّال فقير على نهر دجلة يغسل الملابس، ويغنّي بهناءة بال، فتتسلل ألحانه عبر نافذة القصر، فيسمعه هارون الرشيد، هارون ذو الأموال الطائلة، والممالك العظيمة، فيقول ودموعه تخْضِب لحيته:

يا ليتني كنت غسّالًا! يا ليتني ما عرفت الخلافة!

لقد قدّر القويّ سبحانه هذه النهاية الضعيفة على هذا الرجل القويّ حتى نعلم حدود قوّة البشر! فلا نتوكّل إلا عليه، ولا نلتجئ إلا إليه..

## مـات!

يحدثني صاحبي عن جار لهم قديم، في أحد الأحياء الشعبيّة، كان قويًا مـن الأقويـاء، وظالمًا من الظلمـة، ذا عضـلاتٍ مفتولة، وقبضـةٍ كمـا يقـال: حديديّـة.. وقـد حدثـت هـذه القصّـة قديمًا، وصاحبي ما زال فتى ضعيف الحيلة، والقوّة، والبنية!

فـكان أن كـذَب بعض أهـل الحـيّ وزعمـوا لهذا الرجـل أنّ صاحبي يتلصص ساعة غَيبته لينظر إلى أهله من أعلى منزلهم!

فمـا أن التقيا فـي أحد ممرات ذلـك الحيّ، حتـى بطش ذلك الظالم بصاحبي الضعيف، ضربه ضربًا شديدًا مُهينًا، قال: وقد كنت جاوزت سـنّ البـكاء، ولكنني بكيت! ومـا إن تخلّصـت منه حتى توجهت إلى المسجد مباشرة..

وكأنّ الأمـان في المسـجد، والنصـرة في المسـجد، والغوث سيأتيه في المسجد!

يقول: صليت ركعتين كلهما دموع، واستنصرت بالله القوي العزيز!

كان الألـم والحـزن والشـعور بالإهانـة قد جعـل صاحبي كالطائر الكسير، يتمنى لو أن له قوّة يدفع بها ذلك الظالم الذي توكّل علـى عضلاته، واعتمـد على قوّتـه.. وأهانـه على مرأى ومسمع من الناس.

يقول: ثم ذهبت إلى البيت أسحب قدميّ سحبًا، وأنا أشعر بالإهانات تحيط بي، ثم نمت وأنا أحسّ بمعنى الظلم، ومعنى قلّة الحيلة، والهوان على الناس!

ثم إنّه قبيل أذان الفجر جاءه أخوه يوقظه مبهوتًا: انهض، فقد مات فلان! يعني ذلك الظالم صاحب العضلات المفتولة والقبضة الحديديّة!

مات؟

هكذا مات؟

إذن كان القويّ تلك اللحظة يسمعه؟ كان يرى كل شيء؟ ويسمع كل شيء؟ ويقدر على كل شيء، وقد حقّق لذلك الفتى كل شيء!

لا قويّ إلا والله أقوى منه! ولا عزيز إلا والله أعزّ منه..

## عندما يصمت القلب

حدثني صديقي عن قصّة عاشها جميع أفراد عائلته، بدايتها أنّ أخته الحامل وزوجها كانا في سيارة تسير بهما في أحد شوارع مدينة تبوك، وعند تقاطع ما، إذ بسيارة مسرعة من الجانب الآخر تقطع الإشارة وقد كانت حمراء، فتسبب ذلك في حادث شنيع ذهبت تلك الأخت وجنينها ضحيّته.

وبعد أيام من ذلك الحادث تحوّلت القضيّة للمحكمة، وقد أتى ذلك الشاب الطائش بشاهد زور، يشهد بأنّ الذي قطع الإشارة هو زوج المرأة التي ماتت، أمهله القاضي أسبوعًا حتى يأتي ويسجّل شهادته، وتغلق القضيّة، فأسقط في أيدي الجميع، وشعر أفراد الأسرة أن دم أختهم سيذهب نتيجة طيش شاب، وشهادة زور!

قال صديقي: فتواصى جميع أفراد العائلة الذين في تبوك وخارجها في الليلة التي صبيحتها توثيق الشهادة على قيام تلك الليلة ورفع أيادي الدعاء على ذلك الشاهد الكاذب.. كانوا جميعًا يحتاجون الله، حتى يُنهي تلك المظلمة التي نزلت عليهم بتفاصيلها السوداء!

قال: وفي الصباح كنّا في المحكمة، ودخلنا على القاضي، وإذ بالشاب الطائش يعترف بالحقيقة، دون ضغط من القاضي، وأعيننا تنظر لما يجري بذهول، فسأل القاضي الشاب عن سرّ تغيّر كلامه، فأخبره الشاب بأن الشاهد قد مات قبيل الفجر بسكتة قلبيّة!

إنّه القويّ سبحانه.. الذي سمع دعوة صادقة مخبتة تصعد من حناجر مزّقها الظلم في تلك الليلة المليئة بالدموع، فقال: وعزّتي وجلالي لأستجيبنّ لكِ.. فانتهت مأساة الأسرة بشريان في قلب ذلك الظالم أمره الله أن ينسد، فانسد بكل خضوع لله الواحد الجبار.

## كفرت بأنعم الله

كانت هناك مدينة إيطاليّة قديمة، اسمها بومبي، عظيمة البنيان، ذات حضارة وتطوّر وثراء عجيب، يتحدّث عن ثرائها المؤرّخون بأنّ قطع الذهب كانت تُرمى في شوارعها لغنى أهلها، وعدم حاجتهم! فهل شكروا ربّهم على هذا العطاء؟ كعادة الإنسان أنّه يطغى ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٧].. ولكن طغيانهم جاوز الحدّ!

لقد كفرت بومبي بالله القوي المتين! وجعلت تبارزه بالموبقات، وبعظائم المنكرات! حتى باتت الفواحش ممارسة اعتياديّة يقوم بفعلها أهل بومبي في الشوارع والملاهي والحدائق! فاستمطروا غضب القوي وعقابه، فماذا كان؟

في يوم أحمر! أراد الله أن يعلم أهل بومبي أنّه قوي شديد العقاب، وأنّه قد غضب سبحانه، وأنه أعظم من أن يحارب بالفواحش! فبدأ العقاب يزحف نحوهم، وأخذت ضربات زلزال خفيف تحرّك تلك المدينة الضئيلة.. وصارت أبواب النوافذ تصطك على أولئك المنغمسين في فعل الموبقات!

وفجأة وفي ظهيرة يوم الغضب انفجر بركان عظيم بالقرب من تلك المدينة، فتصاعدت الأدخنة السوداء مغطّية شعاع الشمس، ومحوّلة النهار إلى ليل، والهناء إلى ويل!

استيقظ أولئك الفسّاق على فجيعة العذاب الأليم، وأرادوا الفرار من غضب الله، ولكن إلى أين؟ أخذت نيران ذلك البركان الغاضب تمطر عليهم، وتُسقِط سُقُفَهم، وتهدم بيوتهم، وتبتلع أيامهم الجميلة، وذكرياتهم الهانئة!

وها هي بومبي تظهر من جديد، بعد أن كانت مدفونة قرابة ألفي عام، فيظهر لنا أولئك المعذّبون الذين بارزوا القويّ المتين بالكبائر، يظهرون وعلامات الصراخ على أوجههم الكالحة! فقد حفظت - بإرادة الله - الحمم البركانيّة آخر لقطاتهم، وملامحهم الأخيرة! نعوذ بالله من مبارزة الله بالمعاصي، ونسأل الله ألا يغضب علينا.

## ريح صرصر

عندما عصاه قوم لوط أرسل إليهم ملكًا من ملائكته فرفع قريتهم إلى قريب من السماء ثم ضربها بجناحه فارتطمت بالأرض، فكانت نهاية مفجعة!

عندما تطاول الأشقياء على نبي الله نوح، وعاندوه في دعوته، رفع يديه إلى القويّ سبحانه، فأمر القويّ السماء أن تمطر ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١١] فأغرق الأرض كلها، لأجل نوح عليه السلام!

قوته لا حدود لها!

غضب على قوم فأمطر عليهم حجارة من السماء!

وسخط على آخرين فأهلكهم بصيحة!

وتطاول عليه بعض المساكين فجعل نهايتهم بريحٍ صرصرٍ عاتية!

ليس هنـاك ظالم إلا وبيده فناؤه، ولا جبّـار إلا وفي قدرته أن يقصمه، ولا متكبر إلا بكلمة يجعله لا شيء.

❋ ❋ ❋




# البديع

الكون

علبة ألوان ضخمة

# البديع

لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أسماء تشترك في معان وتفترق في أخرى! من بينها: الخالق والبارئ والمصوّر والبديع..

سيكون كلامنا هنا عن الاسم الرابع من هذه الأسماء الحسنى، اسم الله «البديع»..

الإبداع يحمل معانيَ أخرى غير الإيجاد والخلق.. الإبداع هو أن يخلق الشيء على غير مثال سابق.. ثم تكثر هذه المخلوقات المبدَعة لدرجة لا يمكن تخيّلها فضلًا عن عدّها وحصرها ولو على وجه التقريب.

إنّ لكل شيء في الكون، وأنا أعني حرفيًا (كل شيء) إبداع يخصّه! وإيجاد مميّز يجعل العقل يحار والفكر يطيش!

أكرّر (كل شيء)! فلا أعني مثلًا الإنسان باعتباره شيئًا، بل أعني أيضًا كل ما يحويه الإنسان من خلايا وأنسجة وأعضاء وأجهزة! بل تكوين الخلية ذاتها إبداع من بديع السماوات

والأرض.. ولـن يسـتطيع كتـاب بحجـم المجـرّة أن يأتـي علـى ما أبدعه الله وصوّره!

سـنطوف ـ بقدر قلّة علمنا ـ مع هذا الاسم العظيم، لنستجلي شـيئًا مما أبدعـه الله في كونـه.. ولن نحتـاج إلى أكثر مـن عقولنا لنتأمّل، وأبصارنا لننظر، وأيادينا لنتلمّس.. فالكون صفحة لا تحتاج إلى تعمّق حتى تدلّنا على الخالق البديع سبحانه..

### معجزة الصـوت

فمما أبدعه الله تعالـى في كونه وأوجده على غير مثال سـابق عالم الأصوات المكتظ بالحياة..

من العجيـب أن يتمتع هذا المصنوع الجديـد (الكون بما فيه) بصوت، بترددات موجيّة تصدر عنه، والأعجب أن يحتوي الإنسان والحيوان ومن شاء الله على قنوات سمعيّة تستطيع أن تحوّل تلك الموجات إلى معانٍ وإشارات لها مغزى ومقصد!

تخيل الكون قبل أن يخلقه الله بثلاث دقائق، لا وجود للمنطق العقلي البشـري تلك اللحظـة، وتأمّل كيف علـم الله أن حياة هذا الكـون الذي سـيخلقه بعد ثـلاث دقائق لـن تكون معقولـة لو لم يوجد فيها إبداع اسمه الصوت؟ فيخلق الكون مدعّمًا بهذا التنوّع العجيب والجميل..

ثم تسـمع غناء البلابل، وصداح القماري، وحفيف الأشجار، وخرير الأمواه، وجمالًا وجلالًا وحياة.. سبحانك ما أعظمك..

## نغمة الحيـاة

والتنوّع الصوتي إبداع!

دعنا نتخيّل أن البشر كلّهم يملكون خامة صوتيّة واحدة، ونبرة صوتيّة مستنسخة..

تسـمع صوتًا يناديك من الغرفة المجـاورة، فلا تعرف هل هو أمّك أم أبوك، هل هو طفلك ذو السبعة أعوام أم أخوك الأربعيني؟

صوتك يشبه صوت البائع، ثم يدلف زبون آخر، فيسأل البائع عـن سـلعة معيّنة، يسـأله بنفـس صوتـك، فيجيبـه البائـع بنبرتك، فيصـرخ مدير المتجر مـن بعيد في نفـس اللحظة التي تنـادي فيها أم خـارج المحـل طفلها، فيـرد الطفـل بتذمّر فتختلـط الأصوات، ولا تدري من هو الذي يتكلّم..

ستفقد الحيـاة عمقها، بـل سـنفقد نحن قـدرًا كبيـرًا من فهم الحياة، ستنتشـر الفوضى في حياتنا، بل وستتسـلل إلى مشاعرنا.. كيف يمكن للعاشـق في أيام زواجـه الأولى أن يخفـق قلبه لأنثى لديها صـوت أصدقائـه، وإمام مسـجده، وشـيخ قبيلتـه، وموظف البنك.. شيء مزعج، بل خانق..

فيعلم الخالق بكل هذه الفوضى، قبل أن يخلق الإنسان الأوّل، فيخلـق في حنجرة كل إنسـان نبرة خاصة، وخامة خاصة، ولمسـة شخصيّة، يصبح بها صوت الأنثى عميقًا دافئًا، وصوت الرجل قويًّا صلبًا، وصوت الأم حنونًا كقلبها، وصوت الطفل بريئًا كعينيه!

تسـمع صوتًا يناديك فتـدرك أنّه صوت فلان ابـن فلان.. نعم فصوته مـن الخصوصيّة بحيث يشـبه اسـمه الكامل، يشـبه ملامح وجهه، يشبه مشاعرك تجاهه..

## سر وسيبقى سرًّا

لـو اسـتطعنا أن نلتقط صـورة للحبال الصوتيـة وتجويفات حناجر مئة شـخص، فإنّه يصعب علينـا أن نلحظ فرقًـا تكوينيًّا بينهـا، فمن أين بـات صوت أحمـد غير صـوت خالد وصوت خالد يختلف عن صوت زياد؟

ما هو الشـيء الذي يصبغ أصواتنـا بخصوصياتها، ويجعل بحة هنـا، وحدّة هنـاك، وضخامة في هذا الصـوت، وحنانًا في تلك النبرة؟

وليسـت القضية في ضخامـة الصوت وحدّته، بل إنّك تسـمع عشـرات الأصوات الحادّة، ثم تجد لكل صوت بصمته.. وتسـمع عشرات الأصوات الضخمة فتجد لكل نبرة منها تميّزها..

في علـم الأصـوات هناك طبقـات صوت ذكوريـة وأخرى أنثويـة، وينـدرج تحتهـا كل صـوت بشـري تسـمعه.. فطبقـة «باريتون» مثـلًا، تنـدرج تحتها مئـات الأصـوات الرجالية التي تعرفها، وكثير من القراء مختلفي الأصوات يمكنهم أن يندرجوا تحت هذه الطبقة.. قل مثـل ذلك عن طبقة تينور، وطبقة باس، وغيرها..

ونحن لا نحتاج إلى تعمّق فـي معرفة تفاصيل صوتية حتى نندهش من إبداع الله تعالى لأصوات البشـر.. يكفيك أن تقارن بين نبرتك أنت ونبرة أي شخص آخر يعيش معك، ثم تتساءل: كيـف اختلـف الصوتـان؟ مـع اتفـاق كل أو غالبيـة التفاصيـل المنتجة لهذا الصوت؟

اسـمع القارئ الشـهير «عبد الباسـط عبد الصمـد»، وكيف يؤدّي نبـرة الجواب الحـادّة، ويملؤها بشـجن يذيـب القلوب، وقارن بينها وبين ذات النبرة لدى القارئ «شعيشـع»، مع أنهما ينتميان لنفس الطبقة؟

إن الأصوات في حناجرنا كألوان الحياة.. إذا اسـتطعت أن تتخيل حياة خالية من الألوان ستسـتطيع أن تتخيّل كلامًا خاليًا من التميّز النبْري، والخصوصية الصوتية.

## نباح الديك!

وفي الريف..

هناك كلب ينبح، اختار البديع له النباح دون غيره من الأصوات..

وديك يصيح، علم الله أن صباحاتنا ستكون بشعة لو أن صوته نباح لا صياح!

وبلبل يغنّي على الفنن، بصوته المسكون بالشجن..

وحصان يصهل، وشاة تثغو، وهرّة تموء، وذئب يعوي..

لـو أن للحيوانات صوتًـا واحدًا، فكيف تهرب إن سـمعت ذئـبًا من خلفك يعوي، ما دام أن الدجاجة والهرّة والبلبل كلهم يعوون مثله؟

نحن فقط لم ننتبه لمثل هذه الأهميّة للأصوات، وإلا فإنّ هذا الموضوع حريّ بأن يطرد كل الهرطقـات التي نظنّها فكرًا منضبطًا يحاول أن يحاورنا عن هل الله موجود أم لا؟

﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيـم: ١٠]؟ هل ينبغـي أن يخالج النفس شـك في هذا الرب الذي لـم يغفل عن هـذه التفاصيـل الغاية في الدقة، فلم يكتف بخلق هذا العالم المكتظ بالحَيَوات، بل واختص كل حنجـرة من حناجـر مخلوقاتـه بدرجـة صوتية، وطريقـة أداء، ومعنى تشعر به النفس لحظة سماع الصوت.

صوت إغلاق الباب، ليس كصوت انكسار الكأس، ليس كخطوات إنسان يسير، ليس كتدفق ماء جدول.. لكل شيء صوت.. ولكل صوت معنى.. ولكل معنى عمق يجعل الحياة حياة، وبدونه كانت ستبدو الحياة سجنًا شعوريًا متشابهًا حد الوحشة.

**العين**

ومما أبدعه البديع سبحانه أن يرى الإنسان الصور والمشاهد! أن يبصر ما حوله.. فلو لم يكن يرى لتعثّرت حياته، ولتوقّفت عن سيرها!

كنت مرّة أتحدّث مع طلابي عن النعم التي لم نعد نشعر بها، ثم هداني الله لأسلوب سهل لا يحتاج إلى كثير من الكلام، وقد أدّى مفعوله المؤثر في قلوب الطلاب: أقمت طالبًا وعصبت على عينيه، وأمرته بأمر سهل، كأنْ يأخذ قلمًا من على الطاولة ثم يعطيه الطالب الفلاني.. استغرق دقائق وهو يتحسس فضاء الفصل، ثم بعد ذلك طلبت منه أن يفتح العصابة، فإذا به بعيد جدًا عن القلم وعن الطالب!

عاد لمكانه الأول وطلبت منه نفس الطلب دون أن أعصب على عينيه فنفّذه في ثوانٍ قليلة..

أتساءل: كيف ستكون حياتنا صعبة لو خلقنا الله عُميًا؟

كيف كنا سنتفاهم، ونعرف بعضنا، ونسير من مكان إلى آخر، ونصنع وننتج ونطوّر، ونعمر الحياة؟

في مدينة ينبع البحر كنت خارجًا من محل بيع الجوالات، وقبل أن أركب سيّارتي رأيت رجلًا ستينيًّا أعمى على طرف الرصيف يتحسس فضاء المكان بيده، وكان الرصيف مرتفعًا جدًّا بحيث أن سقوطه كان مضمونًا إن استمر خطوة واحدة!

وصلتُ إليه في آخر لحظة وأمسكت به.. أركبته لأوصله إلى مقصده، وعلمت أنّه «أكمه» والأكمه هو مَن وُلد وهو أعمى، أي: أنّه لم ير شيئًا في حياته! سألته سؤالًا كان يلحّ عليّ معناه من مدة طويلة: كيف تعرف الألوان؟ وأوصاف البشر؟ جمالهم وقبحهم؟

جوابه تشظّى داخلي..

إنّه لا يعلم شيئًا محدّدًا عن جمال الطبيعة، ولا عن روعة البحر، ولا عن صفاء السماء، ولا عن إشراقة الصباح، ولا عن معنى الألوان وسحرها الأخّاذ..

اسأل نفسك: كم مرّة رأيت طفلًا يلهو، أو طائرًا يحلّق بجناحيه، أو مسجدًا شامخ البنيان، أو سحابة ناصعة البياض.. ثم

تأكد أن هنـاك من بلـغ السـتين والسـبعين والثمانين ولـم ير هذه الأشياء مطلقًا.

### اللون

رؤيتك للألوان ليس شيئًا لا بد منه ما دام أن لك عينين! هناك مخلوقـات لا ترى الألـوان، وكل الأشـياء التـي تراها أنـت زاهية نابضة بالفرح تراها هي بدرجات الرمادي!

دعني من هذه المخلوقات، سـأحدّثك عـن زميلي في العمل، كنّا نتحدث عن أوراق شـجر صناعية خضراء متدلية من السـقف، وفي وسط الحديث سألني بملامح جادّة: ما لون هذه الأوراق؟

نظرت إليه أبحث عن طيف ابتسامة.. فإذا بالجدية تعمّ ملامحه..

قلت: خضراء! ولكن لماذا تسأل؟

فقال: أنا لا أراها خضراء! أراها بنيّة!

قرنت بين حاجبيّ متعجبًا! فإذا به يوضّح: أنا مصاب بعمى ألوان!

بدأ يستطرد ويخبرني بأنّه لا يعرف ما هو اللون الأخضر! وكل شـيء يقال: إنّـه أخضر يـراه بنيًا! حتـى إنّـه يحفظ إشـارة المرور بالترتيب، فإذا أضاء النور الأسفل علم أن الإشارة خضراء.

أذكر أني صدمت من كلامه، ودخلت بعض المواقع والمقاطع عبر شبكة الإنترنت لأستجلي حقيقة هذا المرض الذي كنت أسمع عنه، ولم أهتم قبل ذلك اليوم بمعرفة تفاصيل حياة المصاب به!

علمت أنّ هناك نظارة ابتكرت لتحويل الألوان التي يراها المصابون بهذا العمى إلى درجتها الطبيعية.. تأثرت كثيرًا عندما عرض ذلك المقطع بعض المصابين وهم يرون الألوان لأوّل مرة.. كانوا كالأصنام وهم منبهرون بجمال الكون.. لأول مرة يرون الأشجار ـ هذه التي نراها دائمًا ـ على حقيقتها..

دع هذه التفاصيل وعد لسؤالي الأول: ماذا كان سيحدث لو كانت الحياة بلا ألوان! أو لو لم نكن نحن نميّز الألوان؟

أين سيختفي ذلك الفرح الذي نشعر به وهو يتسلل إلى أرواحنا مع رؤيتنا للأشياء التي باللون الأصفر؟

حدثني عن الأشياء الزرقاء التي تشعرنا بالبهجة.. كيف ستؤدي مهمتها وقد سلبت اللون الأزرق؟

اللون الأحمر الدافئ ماذا كان سيفعل في أرواحنا لو تحوّل إلى درجة رماديّة معتمة؟

انظر فيما حولك؟ إن الكون علبة ألوان ضخمة.. ستغدو لا شيء إن فقدت هذه الميزة..

لن أحدثـك عن الأشـياء الضرورية التي سـتتعطل بتعطل خاصية استشعار اللون، فقط أريدك أن تركّز على الأشياء الجميلة التي ستفقد جمالهـا بفقد الألوان.. ثـم تتعجب لرب لـم يردك أن تزاول الأشـياء الجادة فقط، بل أرادك أن ترى الأشياء جميلة بهيجة ذات ألق فريد.

ثم تسـاءل معي: لماذا يصـرّ الملاحدة على أنّـه غير موجود؟ وكم من السعادة والاطمئنان فقدوه عندما خسروا شيئًا اسمه حب الله، والشوق إلى لقائه!

## كـأس

وبعيدًا عن الصـوت والصورة يحضر الإبـداع أيضًا في المواد السائلة! ولنأخذ مثالًا وحدًا فقط..

لو مزجت وبنسب متساوية حبرًا أزرق اللون بحبر أصفر لنتج عنهما حبر أخضر، ولو أخطأ مخطئ في التقدير فسيظنّ بأن الناتج حبر أسـود أو بنفسـجي.. ولكن لن يخطئ مخطئ فيقول: سـينتج عن ذين الحبرين عصير تفاح مثلًا..

تعال معي الآن:

تخيّل أن بين يديك إناءً جلديًّا تملؤه بمادّتين: فرث، ودم.. ثم تحكم إغلاقـه، ثم تقول لمن حولك: سـأثقب ثقبًا في هذا الجلد، فتوقعوا ما الذي سيثعب عنه؟

كل الموجودين سيكون جوابهم أن الناتج هو خليط من الدم والفرث، وسيكون بلا شك داكن اللون، منتن الرائحة، سيئ الطعم..

هذا هو المنطقي، والمتوقع، ولا يمكن لأكثر العقول تخيُّلًا للغرائب أن تتوقع ـ ضمن حدود طبائع الأشياء ـ شيئًا غير هذا..

الفيزياء ليس لديها قدرة على أكثر من هذا المنتج الجالب للغثيان!

لننتقل إلى خالق الفيزياء والكيمياء ونرى ماذا سيصنع سبحانه بهذا المزيج؟

البديع سبحانه ينتج عن هذا الامتزاج ألذ شراب، وأجمل لون، وأعظم معجزة، إنّها معجزة اللبن الخالص السائغ!!

يقول ﷻ في تصوير عجيب، وتفصيل مذهل عن خلقه سبحانه للَّبن: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦]..

وهنا ستعلم أن معادلة الحبر الأزرق والحبر الأصفر اللذين أنتجا عصير التفاح أقرب للممكن من معادلة الفرث والدم اللذين أنتجا كأس اللبن اللذيذ.. وهنا لن تقاوم رغبتك الشديدة في أن تقول: سبحان الخالق العظيم..

ويحضر الإبداع في الرائحة..

لو وضعتُ بين يديك قنينة عطـر، ثم فتحتها، وأخذت هالات الطيب تتضوّع وتنتشـر شـذاها.. ثم سـألتك: هذا المسـك، من أي وردة تظنّه؟ أو أي نبتة تتخيّله؟

لأتيتَ ـ إن كنت لا تعلم ـ بعشرات الزهور والورود والنباتات إجابة عن سؤالي، ولكن الشيء الذي لن تأتي به هو «غدّة» منفصلة عن جسد حيوان ميّت!

الكثير لا يعلمون أن المسـك، هذا الفتات الذي يتضوّع عطرًا مذهل الرائحة، أنّه ينتج عن غدّة في بطن نوع من الغزلان يسـمّى غزال المسك!

إن الله تعالـى يخلق مثل هـذه الغرائب حتى يتيح للبشـرية أن تقول: «سبحان الله»!

وإلا فمـا الرابـط بين الغـزال وهذا العطـر؟ ولمـاذا يكون في بطون الذكور خاصة لا الإناث من هذه الفصيلة من الظباء؟ ولماذا لم توكل مهمـة إنتاج هذه المـادة إلى إحدى الزهـور العبقة، ذات الجمال الساحر؟

ففـي الوقت الذي يخلق الله الإنسـان من الإنسـان، والحصان من الحصـان، والعصفور من العصفور، تفاجئنـا طريقة صادمة في

الخلق.. طريقة تصرخ بنا أنّه سبحانه على كل شيء قدير، وأنّه بديع السماوات والأرض!

## العنبر

دع قنينة المسك جانبًا، وتعال معي في نزهة إلى أعماق البحر، حدّق هناك في العمق الأبعد، ألا ترى تلك المعركة الحامية؟ إنه حوت قادم بشراسة، ليأكل بقضمة واحدة عشرات الأسماك، دون رحمة أو مبالاة!

لو سألتك الآن، ما هو المخلوق الذي يمكن أن يَنتُج عن هذا الحوت الضخم الشرس؟ أو دعني أقول: ما مواصفات ما يمكن أن ينتج عن هذه الضخامة والبطش؟ من المؤكد أن يكون شيئًا بغيضًا مخيفًا!

ولكن البديع سبحانه الذي يُخرج الحي من الميّت؟ ويخرج الجميل من القبيح؟ ويخرج النعومة من الخشونة! يخرج من هذا الحوت المليء بالرعب، عطرًا مليئًا بالجمال والروعة، والجلال والهيبة، اسمه عطر العنبر.

العنبر إن كنت لا تعرفه عطر فريد يحضّر من مادة تخرج من جوف حوت العنبر بألوان متعددة.

ثم لنغـوص في العنبر نفسـه لنرى مزيدًا من الإبـداع، فهو في أصله بلورات بيضاء عديمـة الرائحة! هذه البلورات الدقيقة عديمة الرائحة إذا ما تعرّضت للأكسـدة تنفصم إلى مادتين تمنحان العنبر عطره الشـذيّ! فهنـا رائحة تنتج مـن لا رائحة! وشـيء يصدر من ضدّه، ومخلوق يُخلق من عكسه! فسبحان الذي أبدع الكون..

### لؤلـؤ

وما دمنا في أعماق المحيط، فلنسـتغل وقتنا بحثًا عن اللؤلؤ، تلك البلورات الملسـاء البيضاء بالغـة الجمال، التي يـكاد بياضها يضيء ويتلألأ.

وأنت بحاجة ـ حتى تصل إلى فكرتي ـ أن تحاول ولو بشـيء من التكلّف أن تنسـى شـيئًا من المعلومات التي في رأسـك، انس ـ إن كنت تعلم بالفعـل ـ مصدر اللؤلؤ، ثم خبّرنـي عن المخلوق الذي تراه مناسبًا لتنتج عنه هذه اللؤلؤة الجميلة؟

اقترح ما تشاء؟

لعل من المناسـب في نظرنا أن يكون مخلوقًا كروي الشكل، ذا بريق مـا، وله صلابـة معيّنـة، أو على الأقـل أن يكـون مخلوقًا جميلًا وحسب، إن جمال اللؤلؤ يجعل المنطق يميل إلى اختيار أن يكون مصدره جميلًا مثله.

أترى تلك المحارة بنيّة اللون، ذات الشكل غير الجميل، افتحها..

أترى تلك الأغشية والشحميات غير الجميلة؟

ابحث بإصبعك بينها..

هل رأيتها؟

إنها تتلألأ.. إنها اللؤلؤة!

كيف اختارت هذه الجميلة الرائعة أن تستقر في بطن هذا الكائن الغريب؟

ولنرجع مع هذه اللؤلؤة إلى الوراء لنعلم كيف خلقها الله، فهي في أصلها ذرة تراب أو ما شابه دخلت إلى بطن المحار، فأخذت المحارة بإفراز مادة كلسية لتحيط هذا الدخيل على جسدها بسجن كلسي يمنعه من التأثير عليها، هذا السجن يتصلّب ويتبلور ويتحوّل إلى اللؤلؤ الذي تتزيّن به نحور النساء..

فانظر كيف أنّ البديع سبحانه حوّل ذلك السجن الكلسي البغيض إلى شيء يبهر القلوب جماله!

## زحام الدهشة

وفي خضم هذه الدهشة، والخلق الفريد، سيذهلك حجر كريم، بالغ الجمال، مبهر اللون، إنّه المرجان! الذي تترصّع به التيجان، ويتوسط عقود الحسان!

ستعلم شيئًا من إبداع الخالق إن علمت أنّه نبات بحري، لا علاقة له بالأحجار ولا المعادن!

وهذا الماء العذب الفرات، الذي نشربه بهناء، ونصنع به طعامنا، بل ونطفئ به الحرائق المشتعلة، ستتفاجأ إن علمت أنّه مادّة مؤلفة من عنصرين؛ أحدهما: مشتعل (الهيدروجين)، والآخر: مساعد في الاشتعال (الأكسجين)!

بل دعني أذهب بك بعيدًا، فهذا الصوت البشري الذي تذوب لترداداته القلوب، وترفرف لترجّعاته الأرواح إنما هو حركة أوتار لحميّة في آخر تجويف الفم؟ فكيف نتج هذا الشيء الروحي الصرف عن ذلك الشيء المادي البحت؟

بل إن كلامنا وخطبنا وقصائدنا ومحادثاتنا إنما تنتج عن الأحرف، هذه الأحرف التي هي حركة اللسان داخل تجويف الفم!

اسرح بعينيك، وتأمل بعقلك، وانظر فيما حولك، هناك أشياء كثيرة من غرائب الخلق، وتباينات الإبداع.. كلّها تشير إلى السماء قائلة بلسان حالها: فوق السماوات العلى رب يستحق العبادة..

## وفي أنفسكم

جسـد الإنسـان هو كون من المعجـزات والغرائـب، وفي كل جزء منه ما لا يمكن حصره من التفاصيل التي تقتضي حمدًا كثيرًا، وقبل ذلك إيمانًا عميقًا بهذا الرب العظيم..

وقد لفـت نظرنـا ربّنا سـبحانه إلـى ضـرورة جعل هذا الجسـد بأعضائه ووظائفها وجميل صنـع الله فيها على طاولة التأمّل والتفكر لنصل بهـا إلى يقيـن بـالله، فقـال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]؟ وقال في سياق آخر وتحدّ غريب عجيب: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [فصلت: ٥٣].. فهـو سـبحانه يخاطب ذهنيّة باتت لديها الآيـة ذات إطار محدد، وهو ما يحدث في سـياق حجاجي بين نبيّ وقومـه، فيؤيّده الله بخارق ومعجزة، يؤمن بسـببها من أراد الله له الإيمان، كمعجزة شق البحر، أو انشقاق القمر، أو ناقة صالح... إلخ

هنا تحـدث هذه الآيـة العجيبة ثـورة على السـائد، وانقلابًا على الثقافـة العامّة، فهنا آيات ومعجزات وغرائب سـترونها في أنفسـكم.. إنّ الله مـن العظمـة بحيث يسـتطيع أن ينقل مسـرح المعجـزات إلـى داخلـك، ويجعلـك أنـت المعجـزة الكونيّـة المذهلة، فلـم تعد المعجزة شـيئًا تراه أمامك، بل شـيئًا تحسّـه داخلك، وتشعر به في نبضك.. فمعجزة وجودك ليست بأقل من

معجزة شق البحر، ومعجزة الدم الذي يجري في عروقك ليست بأعجب من معجزة انشقاق القمر..

### الشمس

ماذا كان سيحدث لو لم تكن هناك شمس؟

القرآن الكريم يضيء هذا التساؤل ليبدأ الإنسان بصياغة أسئلة مشابهة، حتى يصل إلى ذروة التفكر، يقول سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١]؟

أذكر أني قرأت قديمًا في كتاب اسمه «الشتاء النووي» يتحدث عن المآسي التي ستحصل لو وقعت حرب نووية بين المعسكرين الشرقي والغربي.. وكيف أن السخام والقتر الذي سيتلبّد في السماء لسنوات ويمنع الشمس من أن تتسلل أشعتها لكوننا سيتسبب في مآسٍ لا حصر لها..

هنا تتخيّل معي أن الذي يمنع أشعة الشمس أن تصل إليك ليس سخامًا وغيومًا عظيمة، كلا، بل لأن الشمس بنفسها غير موجودة!

ما الذي سيحدث؟



سيظلم الكون تمامًا، فنور الشمس الذي يضيء حياتنا لا وجود له، ونور الشمس الذي تعكسه الأقمار والنجوم ليلًا لا وجود له أيضًا، إذن، مصباح الكون سينطفئ تمامًا..

ستقول: لا بأس، سيصنع الإنسان المصباح الكهربائي كما فعل أديسون..

قبل أن أجيبك سأسألك: ماذا ستصنع البشريّة التي عاشت في الظلمات قبل أن يخلق الله أديسون؟

ثمّ خبرني كيف سيصنع الإنسان سراجًا يكون بدائيًّا وهو لا يرى الأشياء من حوله، ليدرك أن هذا هو الزجاج وذاك الحديد وهذه فتيلة وهذا زيت؟

كيف سيعرف الإنسان أن هناك شيئًا اسمه حديد أو زجاج أو قطن وغير ذلك ولم يره أصلًا؟ هل حاسّة اللمس كفيلة بأن تجعله يغامر ويسافر في ظلمات عمياء يسير عبر المجاهل والجبال والبحار بحثًا عن هذا الحديد وذاك الزجاج ليصنع سراجه؟

ثم لنفترض أنّه أوجد بديلًا ينتج له الضوء، كيف سيأكل؟

جميع النباتات تعيش على ضوء الشمس؟ ويعتبر الضوء مكوّنًا رئيسًا لغذائها! فكيف ستنبت الأرض الطماطم والبصل والقمح والشعير والتفاح والبرتقال؟

هل تعتقد أنه سيكتفي بالثروة الحيوانية؟

النبات هو غذاء الحيوانات الأهم، فكيف سيعيش الغنم والبقر والإبل وغيرها من الحيوانات بلا نبات؟

ثم بعد ذلك تخيل معي درجة حرارة الكون؟ إنها تحت الصفر بمئات الدرجات! إذ إنّ مصدر حرارة الكون هو الشمس! وبدون الشمس سيعيش العالم في شتاء قارص، تتجمّد معه البحار والمحيطات والأنهار.. بلا مبالغة سيغدو الكون ثلاجة هائلة الحجم!

هل فكرت في صباح من صباحات حياتك وأنت ترى هذه الشمس العظيمة تطلع بكل هدوء، وبلا ضجّة، دون أن تطلب منك ريالًا واحدًا كأجرة لهذه المنافع، ودون أن يكون هناك رسوم مخفّضة للاستمتاع بمزاياها العظيمة هل فكرت أن تحمد بديع السماوات والأرض؟

### الأكسجين

من الصعب تخيّل وجود حياة ما بلا أكسجين! فإن كانت الحياة بلا شمس مستحيلة البقاء، فإنها بلا أكسجين مستحيلة الوجود أصلًا!

خلايا جسد الإنسان تحتاج الأكسجين لتتخلّق.

وطاقة الإنسـان وتحـوّل الدهون والسـكريات في جسـده إلى سعرات حرارية تعطيه الطاقة والحيوية تحتاج إلى أكسجين.

والتنفّـس الـذي بدونه تنتهـي حيـاة الفرد فـي أقل مـن دقيقة اعتماده على الأكسجين.

بـل إن المـاء الذي هـو المكـوّن رقـم واحـد للحيـاة بجميع أشكالها عبارة عن ذرة أكسجين وذرتين هيدروجين.

ولـك أن تتسـاءل الآن: ما هـي المخلوقـات التـي سـبقت الأكسجين والشمس والسمع والبصر واللون والعطر وغير ذلك.. فقيست هذه المخلوقات عليها؟ وطوّرت من خلالها؟

هنا تدرك معنى البديع، وأنّه أتقن وأبدع كل شيء خلقه.. وأنّ مُكثك طوال حياتك سـاجدًا له، لن يؤدّيَ شـكر نعمـة واحدة من نعمه التي أبدعهـا، ووهبها لك.. دون أن تسـألَه إيّاها، بل دون أن تدرك مدى حاجتك لها.





# الخاتمة

وبعد هذه الجولة مع هذه الأسماء الحسنى، والصفات العُلى.. مع هـذا الجلال والكمـال والكبريـاء والعظمة، والتـي حاولت أن أكون فيهـا قريبًا مـن روح القـارئ العادي متوسّـط الثقافـة، الذي لا يميل إلى التوغّل فـي القضايا العلميّة البحتـة! بل هو يميل إلى اللغة الأدبية، وإلى القصّة المؤثرة، وإلى الموعظة الهادئة..

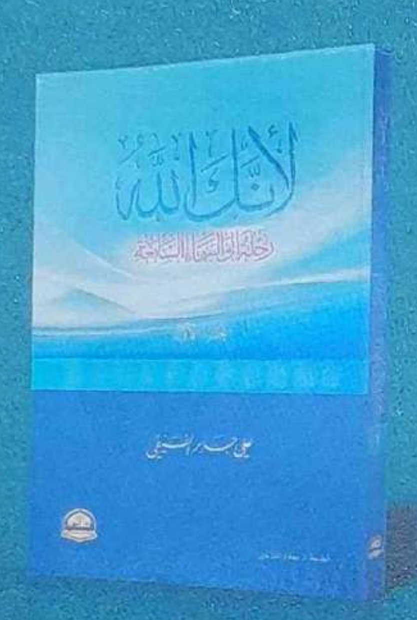
بعد هذه الجولة أرفع كفيّ داعيًا الله تعالى أن أكون قد وُفقت لتعريـف القـارئ بشـيء من ظـلال هـذه الأسـماء، وأن أكـون قد حرّكت معانيها في القلوب، واستطعت أن أصوّر شيئًا من عظمتها وجلالها وكمالها.. بقلمي الكسير، وعلمي القليل.

اللهم إني أستغفرك أن أكتب عنك وقد علمت حالي، فتجاوز عنّي، واجعـل نيّتي خالصة لك، واجعل عملـي مما يرضيك عنّي، وتقبله بقبول حسن.. وأسعدني به يوم ألقاك.

**وصلى الله وسلم على سيّدنا محمد.. وعلى آله وصحبه أجمعين.**

# المحتويات





**من اصدارات المؤلف:**





شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع


ISBN 978-603-8381-32-8

9 786038 381328

المملكة العربية السعودية - الرياض
daralhadarah@hotmail.com
الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011
@daralhadarah 0551523173
زوروا متجر الحضارة
daralhadarah.net